منشورات ابن النديم
Editions Ibn nadim

الرابطة العربية
الأكاديمية للفلسفة

دار الروافد الثقافية

مقالات في الدرس الفلسفي

تعلموا كيف تُقرأ الفلسفة كي تتعلموا كيف تُفهم وكيف تُدرَّس

تأليف

مدني صالح

جمعه وأعده وقدم له

د. محمد فاضل عباس

ابن النديم للنشر والتوزيع

دار الروافد الثقافية - ناشرون

مقالات في الدرس الفلسفي

ابن النديم للنشر والتوزيع   دار الروافد الثقافية - ناشرون

مقالات في الدرس الفلسفي

«تعلموا كيف تُقرأ الفلسفة كي تتعلموا كيف تُفهم وكيف تُدرَّس»

تأليف
مدني صالح

جمعه وأعده وقدم له
د. محمد فاضل عباس





الرابطة العربية
الأكاديمية للفلسفة



مقالات في الدرس الفلسفي

مدني صالح

الطبعة الأولى، 2016
عدد الصفحات: 203
القياس: 17 × 24
الترقيم الدولي ISBN: 978-9931-369-84-4
الإيداع القانوني: 2015-2360

ابن النديم للنشر والتوزيع

الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3 محل رقم 1، المحمدية
خلـــوي: 03 76 20 661 213+

وهـــران: 51 شارع بلعيد قويدر
ص.ب. 357 السانيا زرباني محمد
تلفاكس: 88 97 35 41 213+
خلـــوي: 03 76 20 661 213+
Email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون
هاتف خلوي: (96171) 204180
ص. ب.: 113/6058
الحمـراء، بيروت-لبنان
Email: Rw.culture@yahoo.com

المحتويات

إلى جميع الذين يفصلون القميص على قد يوسف فيعدلون ويعتدلون ولا يضطربون... وإلى جميع الذين يفصلون يوسف على قد القميص فيظلمون أنفسهم ويوسف والقميص ويضطربون.

التقديم

هذا الكتاب مقالات للأستاذ مدني صالح ذات طابع بحثي، كنت قد اتفقت معه على جمعها وترتيبها بهذا الشكل الذي بين أيديكم خدمة للدرس الفلسفي. مقالات كلها منشورة في الصحف العراقية، لكنها حسب تقديري غير مقروءة، لذا فهذا كتاب جديد لمدني صالح لأنه لم يقرأ بعد، فيه خلاصة آرائه ومواقفه من مجمل تاريخ الفلسفة الغربية.

يدعو مدني صالح في كتابه هذا إلى: كيف نقرأ الفلسفة وكيف نفهمها وكيف نُعلمها لطلاب الفلسفة، وكيف نبدأ معهم الدرس الفلسفي، ففي هذا الكتاب يتضح لنا جلياً مدى قدرة المؤلف على فهم واستيعاب الفلسفة التي سعى إلى تبسيطها وجمعها وتلخيصها، هذه الدعوة التي لم يكُف عنها مدني صالح حتى مماته، وفيها كان مراهناً على إمكانية تداول الفلسفة بلغة واضحة دقيقة بسيطة ممتعة لا لبس فيها ولا غموض، مثلما ظل معتقداً بأن سوء الفهم لا يقف وراءه إلا من حسب نفسه على الفلسفة وكتب فيها مدعياً فهمه لها، فالذين لا نعرف من أين جاءوا وتسربوا إلى الفلسفة ورمت بهم الأقدار إليها هم الذين أساءوا قراءتها وأساءوا فهمها وأساءوا تدريسها والكتابة عنها والحوار فيها، فظل مدني صالح متمنياً للفلسفة ولمن يتخصص فيها البساطة والوضوح والدقة، فستجد في هذا الكتاب وبشكل واضح دعواه المستمرة إلى أن على الفلسفة أن لا تعاند العلم وأن تقبل منه كل ما يأتي به، وأن لا تتدخل فيما لا يعنيها، وأن تعاند الخرافة والجهل وأن تحارب التعصب والجمود والانغلاق وأن لا تقع في براثن الغيب، فالغيب ليس من أمر الفلسفة وإلا إذا ما استمرت الفلسفة مدافعة عن قضايا

قد أسقطها العلم، فعندها لم يزدد طالبها إلى سخرية منها وإلا كيف تدافع الفلسفة عن نظرية الفيض مثلاً أو عن الطبيعة عند أفلاطون أو العناصر الأربعة عند أرسطو أو عن القول بوجود عالمين، وكل ذلك قد أسقطه العلم منذ كوبرنيكوس وغاليلو وكبلر، فكل هذا لا يمكن أن نفهمه إلا على أنه مرحلة من مراحل التفكير البشري ونمط منه ليس إلا، كما ستجدون في هذا الكتاب موقفاً من الغطرسة الأوربية وإحساس الأوربي بالتفوق والتفرد في مركز القيادة الحضارية، الأمر الذي لم يقبل به مدني صالح الذي رفض احتكار الفكر والفلسفة في حضارة دون أخرى، وموقف مدني صالح هذا ما هو إلا رد فعل على غلو أصحاب المركزية الأوربية، فإن تغالوا نغالي وإن تعترفوا نعترف، وستجد أيضاً في هذا الكتاب دفاعاً مستمراً على أن الفلسفة لم تبدأ إلا علماً طبيعياً: فيزيائياً في البحث عن مبادئ الحركة وكيميائياً في البحث عن مبادئ التغير وبايولوجياً في البحث عن مبادئ الحياة، وإن السؤال الفلسفي عن الأصل التكويني المشترك لجميع الموجودات لم يكن إلا سؤالاً علمياً عن الأصل المُكون لهذه الموجودات فيزيائياً وكيميائياً وبايولوجياً ولم يكن الجواب إلا علمياً في حينه، فالفلسفة عندما بدأت لم تبحث عن أصل ميتافيزقي لهذا العالم مثلما لم تبحث عن أصل خرافي له، بل أرادت أن تبحث عن أصل مادي علمي يخضع للتحليل والتجريب في هذا العالم، وهكذا كان الفلاسفة الطبيعيون الأوائل وكذلك الذريون، ولم تَخرب الفلسفة إلا عندما وقعت في براثن الدين وأصبحت خادمة له، ولم تَخرب الفلسفة إلا عندما وقعت في براثن السياسة وأصبحت خادمة لها، ولم تَخرب الفلسفة إلا عندما عاندت العلم، ثم عادت الفلسفة على يد ديكارت الذي فصلها عن الدين وميز بين مناهجها ومناهج اللاهوت وعلى يد فرنسيس بيكن الذي فصلها عن العلم وميز بين مناهجها ومناهج العلم، ثم ازدهرت وازدهرت على يد الذين أرادوا لها أن تكون موقفاً وسلوكاً، رفضاً وتمرداً، اكتفاءً بالذات واستغناءً عن الغير، فازدهرت على يد سارتر وبرتراند رسل وجون ديوي وازدهرت على يد الوجودية والوضعية والبراجماتية.

ظل مدني صالح داعياً على أن ندرب طلاب الفلسفة على الطريقة العلمية الصحيحة في التفكير، على مطابقة الواقع للفكر، على مطابقة الفكر لواقع حال الموضوع أولا، وعلى الطريقة النقدية الشكية في قبول المسلمات التي لا نعرف كيف وصلت إلى درجة اليقين ومتى دخلت إلى الدرس الفلسفي ثانيا، وعلى التمرد واتخاذ المواقف المناسبة في الأوقات المناسبة والاكتفاء بالذات والاستغناء عن الغير ثالثاً، وعلى الحرب على الانغلاق والتعصب وعلى تجاوز تضخم الذات مثلما تجاوز عقدة النقص وحب الآخرين وحسن المواطنة رابعاً، وعلى محاولة تصحيح الخطأ واكتشاف المجهول واختراع الممكن خامساً، وعلى الذوق الفني الرفيع والراقي وعلى التمييز بين ما هو جميل وما هو قبيح سادساً، وعلى تبديل عالمنا الذي لا نتمنى أن نعيش فيه وتطويره من حسن إلى أحسن وتنظيم علاقاتنا وإعادة التوازن الاجتماعي سابعاً، وعلى التسامح وقبول الآخر ثامناً، وعلى العمل المنتج واللعب المبهج تاسعاً، وعلى الأكل من قدامنا والتنافس على أساس الأقوى الأسرع الأعلى عاشراً.

كما إنك تجد في هذا الكتاب أن مدني صالح لا يقبل بالتلقين طريقة لتعليم الفلسفة، بل الحوار، كما لا يمكن لمعلم الفلسفة أن ينفع طالباً واحداً بها إذا لم يكن هو قد انتفع بها على صعيد السلوك والموقف من ناحية وعلى صعيد الفكر من ناحية أخرى، وذلك لأن الفلسفة سلوك وأسلوب حياة وأنها طريقة، فلا يقبل طالب الفلسفة من معلمها شيئاً إذا لم يكن معلمها قد انتفع بها واستفاد منها وطبّقها في حياته واتخذها طريقة له وأسلوباً في حياته.

ولتكن البداية من الذي نتفق عليه لا من الذي نختلف، فأجلُّ وظائف الفلسفة هو انحسارها أزاء مد العلم.

كما إنك ستجد دعوى واضحة على أن الفلسفة ليست من عالم الكثرة بل إنها من عالم القلة، فلمعلم فلسفة واحد يهتم بالتأسيس المتين خير من عشرات لا يعرفون عنها شيئاً، ولطالب فلسفة واحد محب لها قادر على التتلمذ عليها خير من آلاف يساقون إليها جراً وعراً.

وستجد أيضاً في هذا الكتاب طريقة واضحة عند مدني صالح لتدريس الفلسفة مميزاً بين المداخل الخائبة والمداخل الناجحة، كما أنه لا يتمنى أن يأتي أساتذة الفلسفة إليها من الاستشراق من التعصب والانغلاق.

وإنك تقرأ وتقرأ ستجد فيلسوفاً بكل معنى الكلمة وستجد عقلاً جباراً لا يمكن إلا أن تفتخر به، وأسلوباً أخاذاً وهماً واضحاً وصدقاً منقطع النظير، وإخلاصاً وأملاً وطموحاً وأمنية بأن تعلَّم الفلسفة وتُفهم وتُدرس بالشكل الذي يليق بها، فعلى من يريد ذلك فعليه بهذا الكتاب.

وباستمرار يدعو مدني صالح إلى أن لا جدال في قضايا العلم، وعلى أن الإنسان يجب أن نفهمه على أنه محكوم بعوامل بايولوجية وفسلجية وسايكولوجية، بيئية واجتماعية، وستجده مدافعاً وحريصاً على أن ندرب الطالب على الثقة بالنفس والإحساس بالتفوق، وعلى أتخاذ مواقف حاسمة.

كما وستجد دفاعاً عن الأدب الراقي، فلا أرقى من التعبير عن الفلسفة بالأدب الراقي، والأدب كلام لكنه بأسلوب رفيع ورصين وممتع ونافع.

وستجد أيضاً دفاعاً عن الفلاسفة الذين نعرفهم والذين لم نرَ على شاكلتهم في الربع الأخير من القرن العشرين والذين منهم برتراند رسل وجان بول سارتر وجون ديوي وغيرهم، كما لم نجد أحداً من الأدباء في هذا الربع الأخير من القرن العشرين على شاكلة تولستوي وبرناردشو وديستوفيسكي وفرانز كافكا وغيرهم. كما إنك ستجد موقفاً رائعاً وجريئاً ودقيقاً يتخذه مدني صالح من الأدباء الذين يعد بعضهم أعظم من كل الفلاسفة في مجال التحليل وإعادة التركيب النفسي والتوازن الاجتماعي.

وستجد كيف أنه يدافع عن معاناة المبدعين وعن حصتهم من الإبداع التي لم يلتفت إليها أحد والتي قد استفاد منها الجميع إلا مخترعيها ومكتشفيها.

وستجد رأياً مهماً في الأدب الفلسفي ومقارنات مختصرة جامعة ممتعة مفيدة واضحة بين أفلاطون وأرسطو، تحسم لك الأمر، وستجد شرحاً رائعاً عن سقراط والسوفسطائيين تلخص لك كتباً وبحوثاً وتُغنيك عن قراءة غيرها، كما إنك ستجد موقفاً مهماً من سارتر وأرسطو وستجد رأياً لحضور نيتشه وبرتراند رسل بين سقراط والسوفسطائيين، ومع كل ذلك يعترف مدني صالح ويقر «بأنه لا تخلص حرفة ومهنة من المتطفلين الذين يجعجعون ويتسربون إليها فيعيثون فيها ويمضون ويتلاشون كأن لم يكونوا» ومن ألمه قوله «إنك تعرف خلقاً كثيراً قد تبوؤا المنزلة وتقاضوا الأجر على ما يضر في العمل الثقافي والاكاديمي ولا نريد أن نضع في الرقبة خطيئة الإشارة إلى أنك تعرف خلقاً كثيراً قد تسلقوا بلا إعداد وبلا خبرة وبلا تخصص وتدافعوا بالمناكب وبالاكتاف ودفعوا أهل الخبرة والنباهة والاختصاص وجلسوا مكانهم في العمل الثقافي والأكاديمي ولا نريد إغاضة أحد بالإشارة إلى أنك تعرف خلقاً كثيراً قد بلغوا الحد الأعلى من امتيازات العمل الثقافي والأكاديمي وهم دون بلوغ الحد الأدنى من الإنتاج فيه».

ويبقى مدني صالح مدافعاً عن حق المبدعين في كل ما يكتب، فكم يبلغ حق المكتشفين والمخترعين في مجال الطب من ريع عيادات الأطباء؟ وكم يبلغ حق الأدباء والشعراء من ريع المسارح ودور السينما والدراما التلفزيونية؟ وكم يبلغ حق مكتشفي الميكرسكوبات من ريع عيادات التحليلات المرضية، وكم يبلغ حق مكتشفي العقاقير من أرباح مصانع الأدوية؟ والخ الخ.

كما دعا مدني صالح في كتابه هذا إلى أن تكون للتربية حصة من الدرس الفلسفي، لا بل واجب، والتي منها أن لا تُلقن الأخطاء العلمية على أنها حقائق فلسفية، فإن أخطاء أرسطو في العلم في وقتها ليست حقائق فلسفية، فعلى معلم الفلسفة أن ينتبه لذلك وأن لا يلقن الطلبة أخطاء علمية قال بها فلاسفة على أنها حقائق فلسفية.

كما إنك ستجد في هذا الكتاب نقداً لسقراط وإنصافاً للسوفسطائيين

ودعوة إلى قراءة تاريخ الفلسفة بحذر وبروية، وفي الكلام عن السوفسطائيين عليك ببرتراند رسل وجون ديوي ووليم جيمس وسارتر وأوجست كونت، فاطلب الفلسفة من البرجماتيين والوضعيين والوجوديين.

وستجد مدني صالح في هذا الكتاب ضد التربية الوعظية، فالأخلاق من وجهة نظره لا تصلُح في النصح والوعظ، وهو نقد للتربية السقراطية، الذي يرى أنها لو عادت لبدأت بمعاهد اللاهوت وأخيلة الشعر والأساطير، كما أنه دفاع عن السوفسطائية الذي يرى أنهم لو بعثوا لبدأوا التربية في المدارس الصناعية والمعاهد التطبيقية والجامعات التكنولوجية.

كما إنك تجده حاضراً وبقوة بين أرسطو وسارتر عندما ينقد أرسطو في نظريته للسعادة، ويرفض البديل السارتري على أنها استبطان ذاتي متفلت.

كما أن الثقافة عنده لا تكون إلا مع أرسطو في الشعر والمسرح، فهو خير بداية لكل ذلك، فلا يمكن أن تكون ثقافة بتجاوز أرسطو في الشعر والمسرح، لكنها لا يمكن لها أن تكون إلا بالخروج عليه في الوقت نفسه، أي بتجاوز كل فلسفة أرسطو الطبيعية وجزء من ما بعد الطبيعة عنده والتي قد أسقطها العلم، وفي كل ذلك تمكن مدني صالح من توظيف الأمثلة الشعبية لتبسيط الفكرة وتوصيلها للقارئ العام، فاعرف نفسك عند سقراط يستخدمها الناس إما للتهديد أحياناً أو للمعرفة أحياناً أخرى أو للتذكرة والتنبيه.

كما إنك تجد في هذا الكتاب آراءً رائعة في فلسفة الفن والجمال وموقفاً نقدياً واضحاً وتبسيطاً وخلاصة وجمعاً لفلسفة الفن والجمال عند هيجل تقضي منه العجب العجاب.

وتجد فيه أيضاً دفاعاً عن هربرت سبنسر ودعا إلى تدريسه، وأن يكون جزءاً مهماً من مناهج الفلسفة في الجامعات.

إنه إذن سياحة في تاريخ الفلسفة وفروعها، سياحة مختلفة عن الكتابة

الأكاديمية عن تاريخ الفلسفة وفروعها، فيها وضوح وبساطة وجمع وتلخيص، وفيها نقد وموقف ودعوة للأخذ وأخرى للترك وفيها نصيحة ثقافية مهمة جداً عن الذي تقرأه من الكتب ومن الفلاسفة والأدباء، وفيها خطة لبناء مثقف بحق تلمس فيها دعواه المستمرة للاقتصاد الثقافي وعدم بعثرة العمر بقراءة ما لا يزيدك إلا جهلا وإيهاماً وتعقيداً وقشمرة من الكتب ومن الفلاسفة ومن الأدباء.

وبعد أن تنتهي من قراءة هذا الكتاب ستشعر بالتفاؤل وبالتعويل الكبير على الفلسفة وما يمكن لها أن تلعب من دور في حياة المجتمعات.

كل ذلك قمنا بجمعه وإعداده والتقديم له ليكون كتاباً في الدرس الفلسفي بين يدي القارئ، وأنا على يقين أن هذا الكتاب بما يحتويه لم يقرأ أحد منه شيئاً من المتخصصين في الفلسفة إلا القليل القليل منهم والذين لم يتسن لهم إلا قراءة جزء بسيط منه.

ومرة أخرى هذا وعد مني أنا كنت قد قطعته على نفسي أن أجمع وأعد وأقدم وأنشر كل ما كتبه مدني صالح من مقالات وبحوث متناثرة لم تُنشر في كتاب وأضعها في كتاب فيه وحدة هدف وموضوع، راجياً أن يقرأه على أقل تقدير المتخصصون في الفلسفة.

من قضية بداية الفلسفة
إلى مناهج تدريسها

بدأت الفلسفة في القرن السادس قبل الميلاد بحكيم اسمه طاليس في بلاد اليونان... وبطاليس لا بغيره يبدأ مؤرخو الفلسفة كتبهم بلا استثناء... وبه لا بغيره يبدأ النقاد مسألة بداية التمذهب الفلسفي عامة ومسألة بداية المعرفة المنطقية وسيادة سلطان العقل... وهذه حقائق راسخة في المنهج الفلسفي بإجماع مؤرخي الفلسفة ونقادها لم يخرج بعد أحد منهم على هذا الإجماع الذي تأخذ به على قض وقضيض - احتراماً لمستلزمات الدرس الفلسفي العام - لا نخرج عليه بشيء مما في النفس من وعي لتأسيس فلسفي آخر غيره... قل إذن أن الفلسفة قد بدأت في القرن السادس قبل الميلاد برجل اسمه طاليس في بلاد اليونان... وهذه حقيقة تقليدية نحترمها - احتراماً لمستلزمات الدرس الفلسفي العام - وننطلق منها مصدقين على قض وقضيض وعلى العلات... وإلا فمن أنت الآن ليقبل منك جمهور هذي الأرض أن الفلسفة قد بدأت في زقورات أور واكتملت نضجاً في سابع طوابق البرج البابلي.

ويظل الحكيم طاليس أعظم من كل ما قد يظل في النفس من حملها على تصديق، فإطاعة هذا الذي بدأ الإجماع عليه مؤرخون ونقاد عقليون مأزومون بالتطرف (اللاهوتي - المثالي - الأفلوأرسطي) تحت تأثير ما يلي إبان قيام الأوربيين إلى النهضة وإلى تدوين التاريخ العام:

1. الغطرسة الأوربية وإحساس الأوربي بالتفوق والإنفراد والتفرد في مركز القيادة الحضارية... وهذه غطرسة لها من حركة الاستكشافات

والاختراعات، وحركات الإصلاح الشاملة في الدين والمجتمع والسياسة، ومن النهضة البارعة الخلاقة في الفلسفة والعلم والأدب والفن ما يبرزها ويبرز الأكثر منها حين يتباهى الناس ويتيهون تكبراً وفخراً بالإنجاز... لكنها تظل غطرسة أضاعت على الأوربي أكثر من نصف التاريخ العام.

2. الاستغلال العبري لحادثة السبي البابلي واستثمار هذا السبي في تصوير بابل بصورة المدينة العاتية المتغطرسة بلا علم وبلا أدب وبلا فن وبلا توجه فلسفي في الحياة.

3. مقدمات الحروب الصليبية قبل أن تبدأ وجراحات هذه الحروب التي لم تندمل إلا بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها في الربع الأول من القرن العشرين.

4. تلاشي دراسات الحضارة الشرقية القديمة وانطماس معالم اللغة المسمارية واللغة الهيروغليفية... وانقطاع الصلة بكنوز ثقافة وتشريع وعمران الشرق.

5. حسد السياسي الأوربي إزاء الإمبراطورية العثمانية، وإحراقهم كل أخضر حضارة سومر وأكد وبابل وآشور وفينيقيا ومصر القديمة بيابس حطب الأتراك ..وكانت الإمبراطورية العثمانية قد تمطت فامتدت حتى أسوار فيينا وأشرفت على ظاهر باريس وأدخلت الإسلام إلى كل جنوب شرقي القارة الأوربية العائدة في النهضة إلى الإغريق أماً وأباً للمعرفة وجداً مجيداً لكل مجيد في العلم والفلسفة والفن والأدب.

لكن وليكن! فبأي من الآراء نعتبر طاليس بداية الفلسفة في التاريخ؟؟... ولماذا؟... وعلى أي أساس في التبرير؟

ذلك لأنه ألقى سؤالاً أخرج به موقف ومنهج وأسلوب تفكير الإنسان إزاء الطبيعة من دائرة الثقافة الأسطورية إلى دائرة الثقافة الطبيعية العلمية الفلسفية... إنه ألقى السؤال التالي: ما الأصل التكويني المشترك بين جميع الموجودات ومبدأ الحياة؟؟ وقال إنه الماء... وقال إن الأشياء كلها مفعمة بالأرواح ومبادئ الحركة والتحريك... وهكذا وبهذا السؤال، وبهذه الإجابة

أخرج طاليس مجمل التصور الإنساني ومجمل موقف الإنسان إزاء الطبيعة من دائرة الثقافة الأسطورية إلى دائرة النظر الحسي التجريبي ضمن حدود الضوابط المنطقية وأحكام العقل: واضعاً أساساً لفلسفة طبيعية غير ميتافيزيقية وغير أسطورية وغير لاهوتية وديناميكي لا يميز الطاقة من المادة.

1. إنه لم يتوجه بالسؤال والبحث عن العنصر المشترك ومبدأ الحياة.
2. إنه أرجع التغير والتبدل والصيرورة والتكوين والنمو والاندثار وكل حوادث الطبيعة إلى أحد موجوداتها وهو الماء.
3. إنه لم يبحث عن علل وأسباب مباينة للمحسوس ومفارقة للمادي فيتخذ منها أسباب وجود ومبادئ تحريك هذا العالم.
4. إنه لم يتحدث عن موجودات هذا العالم وخروجها إلى الوجود بواسطة الصراع بين الآلهة أو بواسطة التزاوج بينها، فإنجاب الموجودات ولم يرجع مبادئ التحريك والحركة والحياة إلى قوى أسطورية.
5. إنه لم يرجع أسباب وجود الموجودات وعلل أحداث الطبيعة إلى قوة وإرادة إلهية.
6. إنه لم يبحث عن مبادئ التحريك المادي في طاقة منفصلة عن الأشياء... ذلك لأن كل الموجودات عنده مفعمة بالأرواح... أي أنها كلها - بتفسيرنا - مفعمة بالطاقة الملازمة لها ملازمة ممازجة ذاتية... وأنها تحتوي كل مبادئ حركتها ونشاطها الطبيعي وقواعد وقوانين سلوكها... وهذا يعني أن الحركة عنده هي الأصل في المادة لا السكون.

فلماذا الماء؟ لماذا اهتدى طاليس بالاستقراء إلى الماء لا إلى غيره؟ سأل أرسطو نفسه في كتابه (الطبيعة) مستعرضاً آراء أوائل الطبيعيين فقال: إن طاليس أرجع أصل التكوين المشترك بين جميع الموجودات ومبدأ الحياة إلى الماء ربما بسبب مشاهدته فإدراكه ضرورة الرطوبة للإثبات وللحياة عامة... والرطوبة من الماء.

ونحن إذ نؤيد هذا الذي يذهب إليه أرسطو نرى أن أرسطو قد شخص مبادئ الملاحظة والطريقة الاستقرائية في منهج طاليس... ونرى أن طاليس

قد اتجه نحو الماء للسبب الذي شخصه أرسطو ولأسباب أخرى نرى أن منها:

أولا: المعتقد الفلكي الجغرافي الذي ساد في بلاد الإغريق ردحاً من قرون بشأن نشأة وهيأة الأرض وعلاقتها بالشمس، وإنها قرص متولد من الماء... وإنها تطفو عليه... وإن الشمس تتولد كل صباح في الماء وتخرج منه لتغيب كل مساء منطفئة في الماء... وهكذا تتولد كل صباح شمس جديدة في مشارق الأرض لتنطفئ في مغاربها كل مساء... وعليه فما الذي يمنع أن يكون أصل وعمر الأرض أصلاً ومبدأً مشتركاً لكل الموجودات فيها وأساساً للحياة؟

ثانياً: مرونة الماء وتعاقب الحالات الثلاث عليه (الصلابة والسيولة والبخارية) وإنه مرن يأخذ شكل الوضع الذي يحل فيه.

ثالثاً: إن للماء قيمة تكوينية عالية في كل الأساطير وعلى رأسها قصص الخليقة في الأساطير البابلية وقصص قدامى المصريين.

خلاصة: إن طاليس قد اعتبر الماء أبسط البسائط، وإنه المبدأ والمصدر الذي تخرج منه كل الموجودات وتعود إليه بعد الانحلال لتخرج منه في تكوين جديد... وهذا توجه كيميائي - تحليلي - علمي - طبيعي من وجهة نظر عقلية منطقية خاضعة للملاحظة الحسية ومقيدة بما تجيء به الحواس إلى العقل.

سؤال: هل نستطيع اعتبار طاليس بداية للمنهج الحسي التجريبي في العلم؟

وسؤال آخر: هل نستطيع دعوة الآخرين إلى اعتبار طاليس بداية للبحث التجريبي في الفيزياء والكيمياء على قدر المتاح له حينذاك من مساعدات الحواس ومسهلات التجريب المختبري في تلك الأيام؟

وسؤال ثالث: ألا نستطيع ترسيخ حقيقة كون طاليس بداية للتمذهب الفلسفي نحو الفلسفة الطبيعية القائمة على مبدأ أن هذا العالم المحسوس

قائم بذاته مبرر لوجوده مفسر لأحداثه بالماء عنصراً أساساً تخرج منه الموجودات وتعود إليه؟ وبالروح المكتنف كل الأجسام اكتناف ممازجة ذاتية الطاقة ومبدأ تحريك ذاتي للفعل وقبول لرد الفعل في الموجودات؟

وأخيراً: أليس لنا - هذا إن لم يكن علينا - دعوة المهتمين بالدراسات الفلسفية إلى اعتبار بداية الفلسفة بداية علمية صرفة لا علاقة لها بالفلسفة إلا أن تكون علاقة اعتباط تعاون عليها جهل من الفلاسفة بالعلم وجهل من العلماء بالفلسفة وجهل من الجمهور بالفلسفة وبالعلم وبالفلاسفة وبالعلماء... ومن هذا الجمهور رجال يبلغون أعلى الدرجات من ألقاب التأستذ الجامعي بالفلسفة ولا يعرفون من الفلسفة إلا إساءة فهم الفلسفة حتى لا يكون أرسطو أرسطو وحتى لا يكون أفلاطون أفلاطون.

التوجيه المنهجي: تحويل بداية الفلسفة من مجال الدرس الفلسفي إلى مجال الدرس العلمي، وإناطة أمر تدريسها بالدوائر والأقسام العلمية في الجامعات عند حد التقاء تأريخ العلم بالطريقة العلمية وتطوير التجريب المختبري ومناهج الاستقراء.

أما أن يبدأ أساتذة الفلسفة الدرس الفلسفي بأن الفلسفة تعني حب الحكمة، وأن طاليس اعتقد بأن الماء أصل كل الأشياء، فهذه بداية هازلة ليس فيها من وقار الفلاسفة ورصانة العلماء ما يستوقف اهتمام طالب معرفة باحترام للدرس وذلك لأن هذه البداية خائبة لا ترقى بالفلسفة إلى علم، ولا ترقى بالعلم إلى أي من الفلسفات.

قضايا المداخل إلى الدرس الفلسفي
التمهيد والمداخل الخائبة

إذا كان شرط قيام الدرس في أي من فروع المعرفة طرفين: معلماً يعلم، ومتعلما يتعلم، فإن الدرس الفلسفي لا يقوم إلا بطرفين يتصافيان ويتصادقان ويتبادلان الثقة والاحترام في الحوار... وذلك لأن الدرس الفلسفي يجب أن يكون أول ما يكون مجلس تبادل أفكار لا مجلس تلقين معلومات... وهذه سنّة أفلاطونية ندعو إلى إحيائها وإلى التطبع بها خطوة أولى لا بد منها نحو بناء فلسفي أكاديمي رصين.

وإذا استطاع المعلم أن ينفع المتعلمين بمعلوماته في أي من فروع المعرفة من غير أن ينتفع بها هو نفسه، فأن معلم الفلسفة لا يستطيع أن ينفع أحداً من المتعلمين بمعلوماته الفلسفية ما لم يكن قد انتفع بها هو نفسه أولاً، وما لم يكن - ثانياً - وقد اتخذ منها موقفاً بالقبول أو بالرفض أو بالمهادنة بين بين... وما لم يطور - ثالثاً - إيماناً بالجيل وبقدرة الجيل على ممارسة الإيمان بالتطور ضد الركود وبالحركة ضد السكون وبالجمال ضد القبح: ضمن حدود حسن المواطنة حب المواطنين نحو مستقبل أفضل، بفلسفة تحيد ممارسة فن الانحسار أمام مد العلم عبر جسور التأكيد على سيادة الإنسان في السيطرة على كوارث وأوبئة الطبيعية وشرور النفس: غاية مقصودة بالعبور من لحظات الزمن الماضي إلى لحظات زمن المستقبل.

وإذا صدر الدرس عن المعلم في أي من فروع المعرفة حرفةً واحترافاً مثلما تصدر النجارة عن النجار والحدادة عن الحداد فتصدر المعلومات في

النحو والصرف والعروض والكيمياء والفيزياء والرياضيات والتاريخ وسائر فروع المعرفة عن معلمي النحو والصرف والعروض والكيمياء والفيزياء والرياضيات والتاريخ وسائر فروع المعرفة من غير أن يكون هؤلاء أساطين بناء وتأسيس في المعارف والمعلومات التي يدرسون... وذلك لأن الفلسفة سلوك وأسلوب حياة... بل إنها طريقة مثلما التصوف طريقة لا انفكاك عن الطريقة للفكر عن أسلوب الحياة والمزاج الشخصي الخاص بالسالكين... بل إنها الشخص كله في معلم الفلسفة الذي لا نقبل منه ما نقبل - بحكم واقع الأمر - من معلم النحو مثلاً، أو نقبل من هذا الدرس وننتفع به من غير أن يكون نحوياً... ونقبل منه كذلك أن يمارس تعليم النحو حرفة لا تمازج شخصه في أي من أحوال المزاج والموقف وأسلوب الحياة.

ولسنا هنا من دعاة التمذهب المأزوم بالتطرف نحو هذا المذهب الفلسفي أو ذاك إلا أن يكون التطرف نحو حقائق علمية راسخة حيث لا يكون هذا التطرف هنا إلا انحساراً أمام مد العلم الذي هو أجلّ وظائف الفلسفة قدراً، وأعلى مراتب التطور الحضاري غايةً وهدفاً... وهذه حقيقة راسخة بإجماع سكان هذي الأرض لا يختلف حولها اثنان... لتكن بداية المنطلق الفلسفي من عند حد إجماع كل الناس على احترام حقائق العلم وسيلة للتقدم الحضاري بصرف النظر عن كل الوسائل الأخرى التي قد يكون لها شأنٌ في التطوير في هذا المكان أو ذاك، أو هذا العصر أو غيره، أو عند أولئك أو هؤلاء أو غيرهم من الأقوام... وليبدأ الدرس الفلسفي بالعالم الذي لا يختلف حوله مختلفان مهما اختلفا خارج دائرة الإجماع العام... وليكن - بعد ذلك - إن كان لا بد من خلاف - كل ما شاء للناس اختلافاً وتضاداً في الأفكار.

ولَمُعلم فلسفةٍ واحدٍ يهتم بالتأسيس المتين خيرٌ من أكبر جامعات الدنيا ومن عشرات يملأون قاعة الدرس تفككاً وإساءة إلى الفلسفة والروح الأكاديمي الرصين بالاختلاف - قبل التأسيس - حول لون الجدران وستائر الشبابيك والأبواب.

ويجب - لا بد من هذا الوجوب - أن يكون معلم الفلسفة ذكياً نابهاً مقتدراً ومتمكناً من الدرس الفلسفي تمكن الناقد المقارن المستخرج المستخلص المستنتج... ويجب أن يكون محباً للطلبة قادراً على التتلمذ عليهم في الحوار الفلسفي وتبادل الأفكار مبتهجاً بتدريبهم يتدربون عليه ويتمرسون في فنون الرفض والمعارضة والقبول وإجادة فن الوقوف ضد القبح.

ومن الشروط الواجبة في طالب الفلسفة - وهذه شروط أفلاطونية - أن يكون:

أولاً: قادراً على الفهم والإدراك.

ثانياً: راغباً في الدرس محباً له باحترام.

هذا ويجب أن لا تحمل الطلبة على الدرس الفلسفي قسراً بالإكراه.

المداخل:

ماذا تقول لطلبة الفلسفة في المدخل إلى أول درس فلسفي؟

كيف تبدأ معهم أول دروس المنهج؟ وكيف تحملهم على احترام الدرس؟

إنها لا شك مسألة المدخل إلى أول درس فلسفي وإلى أول فصول المنهج... وهناك مداخل خائبة، وهناك مداخل ناجحة، وهناك مداخل تتوسط الأمر بين الخيبة وبين الإخفاق في الأمر، والنجاح من جهة التوفيق فيه... وبالمداخل الخائبة نبدأ:

المداخل الخائبة:

1. «مدخل الما أدراك»

أن يبدا الأستاذ درسه بخطته «الما أدراك» على نحو ما يلي: الفلسفة

وما أدراك ما الفلسفة... إنها بداية المعرفة، وإنها أم العلوم جميعاً... وإنها كانت تضم كل المعارف وكل العلوم... إنها التعمق في النظر، ولكل شيء فلسفة... ولكل منا فلسفة... إنها الفلسفة... إنها أم العلوم كلها وأصل المعرفة... إنها أم المعارف وأصل العلوم... وإلى آخر خطبة «الما أدراك» التي قد تستمر أسبوعاً أو أسبوعين... أو ربما شهراً... بل قد يدور حولها الأستاذ أكثر من ذلك.

2. «مدخل الفيلوصوفيا والماء»

أن يبدأ الأستاذ درسه بأن الفلسفة تعني الفيلوصوفيا وأن «فيلوصوفيا» كلمة يونانية معناها في اللغة العربية (حب الحكمة)... وأن الفلسفة بدأت في بلاد اليونان... وأول الفلاسفة طاليس الذي قال إن الماء أصل الموجودات.

هذا وقد تطيب للأستاذ الإقامة في ربوع «الفيلوصوفيا» هذه فيديم الوقوف عندها بالشرح والتفسير والإطالة والتقصير مدة أسابيع لا يدخل معها إلى الدرس شيئاً غير فقرات من خطبة «الما أدراك».

3. «مدخل التأستذ بالفلسفة بلا تحصيل»

وهناك أساتذة لا يدري أحد من أين جاءوا إلى الفلسفة... لكن العارف بأبسط مبادئ الفلسفة لا يخطئ أنهم جاءوا إليها من التخصص بغيرها على سنة المستشرقين وامتهنوها حرفة للتأستذ مستضعفين حالها بستاناً واطئ الحيطان ضعيف النواطير... ومدخل هؤلاء إلى الدرس الفلسفي محكوم بكل مظاهر وظواهر وطقوس الحديث في موضوع بلا تحصيل... هذا، وقد يركن هؤلاء إلى بعض من خطبة «الما أدراك» وإلى شيء من خطبة «الفيلوصوفيا» والماء وإلى الكثير من نوادر وطرائف وقصص حياة الفلاسفة وكرامات الأولياء في بعض الأحيان كما يفعل المستشرقون.

بل ربما يحيلون الدرس إلى مجلس روايات أخبار وسير الفلاسفة:

اعتذاراً عن الهرب من مواجهة المسائل والقضايا الفلسفية بشرح وبتحليل وبإعادة تركيب وباستنتاج وبإلقاء النتيجة في الدرس لحوار فلسفي تربوي أكاديمي رصين في التأسيس الثقافي اللازم ضرورة لكل المحاورين.

المداخل الناجحة:

ومن المداخل الناجحة أن لا يبدأ الأستاذ الدرس بمسائل فلسفية كما كانت موضوعاً لجادٍ في الدرس وما عادت هماً لباحث هادف نحو حل لمشكلة قائمة قياماً يبرر شرعية البحث والدرس من جهة بذل الجهد الفردي ويبرر خلفية الصرف من جهة مساهمة المجتمع في الصرف على التربية الفلسفية مالاً، وقوى تعليمية: كلية وأساتذة، وإعداداً لهؤلاء، ولأولئك، وجهازاً إدارياً تربوياً لتدبير شؤون الدراسات الفلسفية... ولا شك في أن كل هذا يؤلف خرجاً يجب - أقل ما يجب فيه - أن يبرر بوادر عائد يعود على المجتمع بحاصل تربوي يسد شيئاً من نفقة الكلفة التربوية... وإلا، فبأي من الدفوع تبرر شرعية وخلقية كل هذا الخرج عن الفعل، والجهد الدراسي والطاقة التربوية؟... هذا، ولا فرق بين أن يكون العائد مباشراً أو أن يكون استثماراً بعيد موسم العوائد في مستقبل مجمل التطور التربوي والدراسات الفلسفية.

ومن المسائل التي لا تؤلف كما كانت موضوعاً لدارس جادٍ، ولا تعود بشيء من دخل يبرر الخرج، ولا يصح أن تدخل حاشية المتن الفلسفي، المسائل التالية:

1. تقسيم العالم إلى عالم علوي وعالم سفلي: عالم ما فوق فلك القمر وعالم ما تحت فلك القمر.
2. مسألة الجواهر والأعراض.
3. مسألة الحركة والسكون.
4. مسألة قوى النفس وملكات العقل.
5. المسائل الوصفية الوعظية.

وكل المقدمات والقضايا التي تؤول أو تؤدي إلى هذه المسائل التي ما عادت كما كانت، موضوعاً لدارس جادٍ في الفلسفة... وذلك لأن هذه المسائل قد خرجت من حواشي متون الفلسفة إلى هوامش متون العلم على نحو ما يلي بالجسم التجريبي المختبري ضمن حدود مناهج العلم وطرائق الاستقراء خارج دائرة التأمل الفكري ضمن حدود أحكام منطق العقل المستأنس بضوابط منطقية بصرف النظر عن مدى مطابقة الناتج الفكري لواقع حال موضوع التأمل الذهني، وبحسم من تطور الوعي في مجال تخطي، فتجاوز المعارف العامة التي صارت بفعل التطور الثقافي الاجتماعي أوليات معلومة عند الجميع وما عادت من النظر الفلسفي بالشيء الذي يستدعي نظراً في الأمر فينفرد به فلاسفة وتقوم له فلسفات.

أولاً: آل أمر مسألة تقسيم العالم إلى عالم سفلي متغير وعالم علوي ثابت إلى حسم فلكي بغاليلو والتلسكوب إذ رصد غاليلو بتلسكوبه حركة كلف الشمس وحركة أقمار المشتري وضبط قوانين حركة هذه الأقمار فوضع بهذا الحسم حداً لفكرة تقسيم العالم إلى سفلي يتحرك وعلوي ساكن لا حركة فيه... وهكذا انتهى أمر فكرة العالم العلوي والعالم السفلي بمجمل حركة الإصلاح الفلكي الحديث بقيادة كبلر وكوبرنيكوس وغاليلو.

ثانياً: خرجت فكرة الجواهر والأعراض وتعاقب الصور على المادة، وانتهى أمر مفعولها في التفسير بقيام الكيمياء الحديثة التي يذهب جمهور مؤرخي العلم إلى أنها بدأت بالكيميائي الشهير لافوازيه.

ثالثاً: هذا، وإنك لتجد أن مسألة الحركة والسكون متلاشية عند حد انحسار الآراء الأرسطية أمام قوانين من غاليلو وكوبرنيكوس إلى نيوتن ومنه إلى انشتين.

رابعاً: أما مسألة قوى النفس وملكات والعقل فقد تكلست فلكلوراً فلسفياً عند حد قيام مدارس علم النفس المعاصرة وعلم النفس التجريبي المقارن وما أحدثته مباحث بافلوف من فتح انقلابي في الدراسات

السايكولوجية... فلا يصح حينئذ أن يتلهى أستاذ الفلسفة بالخارج من حواشي متون الفلسفة إلى هوامش متون العلم... أما إن جاز هذا الضرب من التلهي فليكن خارج دائرة الدرس الفلسفي تأريخاً لأنساب وأصول مسائل وقضايا العلم قبل أن تصير علماً... وهذا غير الفلسفة معتمدين في هذا النفي على قاعدة أن كل ما كان فلسفة وصار علماً، لم يكن قبل دخوله العلم الصحيح إلا معرفة خطأ... ولا يصح، حينئذ، أن نبدأ الدرس الفلسفي ونتوسطه أو نختمه بتلقين الأخطاء... وإلا فما الدخل من الخروج على تلقين أخطاء؟.

وأحسن المنطلقات في المدخل إلى الفلسفة أن يختار المعلم مسألة راهنة تمس حياة الطلبة وتشغل تفكيرهم حقيقة وفعلاً ،لا وهماً وافتعالاً... وأن يستدرج المعلم إلى حوار نحو التفسير بالأسباب، ونحو الحل وأن يربط تفاسيرهم وحلولهم ومجمل مواقفهم بتفاسير وحلول ومواقف فلاسفة لهم شأن في الأمر.

ضع الدارسين - مهما صغروا - فلاسفة مع الفلاسفة! المسألة الراهنة موضوعاً للدرس، وحاورهم بعد تأطير المسألة وتبويبها بالتفصيل... أطرح ثقة بقدراتهم العقلية، وأعلن هذه الثقة جهراً مهما قلت ثقتك بهذه القدرات في حقيقة أمر السر... أعلن للدارسين أن الرجل الناجح محاور جيد... أعلن لهم أن الفلسفة حوار وصفاء نية وتبادل أفكار... وحاورهم... وأفسح لهم يتحاورون... أشع بينهم المرح الهادئ ضد الجد المأزوم، وأشع فيهم توقير الدرس واحترامه ضد الخوف من الامتحان، وأخلط لهم خلط مزج بين المرح والفرح والحب والاحترام في وحدة أفراح حب الجمال وحب كل مشارك فيه... وصنف بين الدرس والدرس في الحوار طلبتك في مجموعات، وأنسب هذه المجموعات إلى المذاهب والمدارس الفلسفية السائدة منذ بداية الفلسفة... وبهذا تكون قد حملت طلبتك محملاً سقراطياً أفلاطونياً نحو تصور لمجمل مفترق طرق التمذهب الفلسفي لا بالتلقين الممل المُنِيم، ولا بالمحاضرة القاتلة طولاً وعرضاً وتنفيراً، بل بالحوار

المنعش، وبالتدريب العملي الفعلي المثير... ولطالب فلسفة واحد منتعش مُثار خير من آلاف يتضجرون حاضرين الدرس مخافة عقوبة الغياب عن درس يعتلي فيه الأستاذ منبر التدريس خطيباً والطلبة سكوت يسمعون.

وحاور طلبتك، أفسح لهم مجالاً يختصمون وينتفعون بكل أمجاد المتضارب الفلسفي لحل مشكلة تمس حياتهم في العلم، أو الأدب أو الفن أو التاريخ أو التشريع أو في أي من فروع المعرفة بما أن المعرفة رد فعل لحل مشكلة تواجه الإنسان... وإلا، فلماذا طور الإنسان لغة وحواراً، وطور كل هذه الفلسفات؟

لندرب، إذن الطلبة في الدرس الفلسفي على أداء ردود أفعال ملائمة في الحوار نحو حل المشكلة الراهنة موضوعاً للدرس حلاً يتوخى:

أولاً : مطابقة الفكر لواقع حال الموضوع.

ثانياً : تشخيص الأسباب الفاعلة حقيقة في ظهور الأحداث وحدوث الظواهر.

ثالثاً : توظيف هذا التشخيص في الاستكثار من الخير... وهذا مالا يكون إلا بتدريب الطلبة شيئاً بعد شيء على مباهج الإحساس بتجاوز الانغلاق على عتمة وأورام الذات وعلى مباهج حسن المواطنة وحب الآخرين حباً قائماً على اتحاد ضد:

1. الخطأ بتصحيحه.
2. المجهول باكتشافه.

وإلا، فلماذا الفلسفة فن جميل؟؟... ولماذا نعلق عليها آمالاً كبيرة في مجال أعادة تشكيل الواقع في مجال تبديل العالم وتطويره من حسن إلى أحسن، وفي مجال أعادة تنظيم العلاقات بين محتويات هذا العالم فإعادة التوازن إلى هذا الكون.

البديهيات

1. إنه جسم ممتد وله ثلاثة أبعاد: بعد أفقي وبعد رأسي وبعد عمق ممتد من عند ملتقى هذين البعدين.

2. وإنه كتلة، ويتصف بالمقاومة: يقاوم الدفع حين تدفعه ويقاوم السحب حين تسحبه ويقاوم الضغط والاختراق حين تريد اختراقه أو زيادة الضغط عليه.

3. وله وزن ناجم من محصلة قوى المقاومة من جهة اتصافه بالمقاومة وقوى الجذب من جهة حتمية خضوعه في الحركة لقوى الجذب العام.

4. وله حجم ناجم عن مقدار ما يحتل من المكان، كما له مكان ناجم عن امتداد كتلته في حجمه في المكان.

5. إنه، إذن، متمكن في مكان وأن هذا التمكن شرط من شروط وجوده، وأن له قيمة ناجمة عن مقدار وزنه، وإن هذه القيمة شرط من شروط وجوده، وإنه يقاوم الفعل الواقع عليه من خارجه وإن هذه المقاومة شرط من شروط وجوده:

إنه متمكن في مكان، وله قيمة ويقاوم - على قدر قيمته في مكانه - العمل الواقع عليه من خارجه... إنه يتصف - أول ما يتصف - بكل الذي تتصف به المادة: غازاً وصلباً وسائلاً: إن الوجود فيه غير منفك عن التمكن في الفضاء بقيمة ذاتية يقاوم بها الفعل الواقع عليه من خارجه... بل أن وجوده لا يعني غير (حجمه + كتلته + وزنه) ولا سبيل إلى إدراك فمعرفة هذا إلا بإدراك فمعرفة مقدار المقاومة التي يقاوم بها الفعل الواقع عليه من خارجه: هل إن المقاومة حينئذ شرط الوجود في الموجود والدليل الوحيد على هذا الوجود؟؟... وهل إن الوجود في الموجود غير المقاومة التي فيه إزاء الفعل الواقع عليه؟؟

6. لكنه لا يقاوم الفعل الواقع عليه مقاومة فوضوية.. إنه دائم المقاومة بحساب.. إنها مقاومة محكومة بقوانين الحركة وبقوانين الضغط وبقانون الجذب العام.. هذا من جهة سلوكه الميكانيكي وحساب الرياضيات في الفيزياء والفيزياء في الكيمياء والكيمياء في البايولوجي.

7. أما من جهة (الفيزيابايو - كيميائية) فإنه قابل للتحليل - أو الانحلال - إلى العناصر الأولى المقاومة للفناء بفعل الألفة الكيميائية ودوام التفاعل: تركيباً وتحليلاً في دورة التكوين والانحلال.. هذا من جهة.. أما من الجهة الأخرى، فإنه كائن حي: وحدته الخلية وحرارته ذاتية وكذلك الحركة ذاتية فيه وإنه يتكاثر وينمو ويهرم ودافع دوافعه حب الحياة والمحافظة على البقاء الذي يعني حب البقاء والمحافظة على الحياة فرداً ونوعاً.. وغايته الموت وإلا لماذا يموت؟

8. رسالته الحياتية: حب الحياة والمحافظة على البقاء ومقاومة الفناء فرداً ونوعاً بالتماسك من الداخل في الداخل إزاء الفعل الضار الواقع عليه وضد الأفعال المستنزفة لقواه... وضد الأفعال المستغلة لخيراته... وضد الأفعال المقيدة لحريته: حرية حب الحياة وحرية المحافظة على البقاء وحرية مقاومة كل ما قد يؤدي إلى ظهور وتراكم فاستفحال أسباب وظروف الاستغلال والاستنزاف والاستبعاد.

9. يتكيف.. يتأقلم... يتفنن بردود الأفعال إزاء المخاطر وإزاء كل ما قد يؤدي إلى مصادرة حق الحياة وحرية الازدهار.. وهذا موقف حياتي فطري تشترك فيه الكائنات الحية جميعاً بلا استثناء.

10. لكنه كائن حي اجتماعي لا يستطيع أن يبلغ توطيد أسباب آمنة وأسباب ممارسة حرية الازدهار وتطوير أسباب العيش إلا في المجتمع حيث التخصص وتقسيم العمل وتعدد الوظائف أمر لا بد منه إزاء تعدد وتكاثر حاجات كل من الأفراد... هذا من جهة... أما من الجهة الأخرى فإنه لا يستطيع أداء رسالته الحياتية وتحصينها ضد كوارث وأوبئة الطبيعة وشرور الإنسان إلا في الاجتماع وتطوير المجتمعات.

11. إنه، إذن، محدود بغيره، وله اسم... يشارك الآخرين ويحترم حقوقهم

وسيلة غير بديلة لتوطيد أسباب الأمن وأسباب حرية الازدهار وتطوير وسيلة الراحة والرخاء منهياً مرحلة الفوضى بالتنازل عن حقه في كل شيء لقاء تنازل جميع الآخرين من حقوقهم في كل شيء وبإقامة الميثاق وإناطة أمر تحفيزه وسياسته وتطويره بسلطة عليا تتصف بالقوة على إقامة العدل وحدود المسؤولية والجزاء ضمن حدود الإلزام السائد وما يفرض هذا الإلزام من ثواب وعقاب.

12. وهو كائن حي اجتماعي يفترض الحرية أساساً لإقامة المسؤولية والجزاء.

13. وإنه كائن حي اجتماعي منطقي ناطق يزرع ويصنع ويدخر ويخزن ويتاجر ويحارب ويحتكر... يستصلح الأرض... يجري إليها الماء... يزرعها يداري ويحمي المزروعات... يبني البيوت ويتخذ لها الأبواب والمفاتيح والأقفال ويوقد النار يتدفأ عليها ويطبخ عليها الطعام ويدجن الحيوان.

يستصفي المواد الملائمة ويصنع منها أدوات الإنتاج ومساعدات الجوارح والأعضاء والحواس وأجهزة يتفوق بها على طبائع الأمور في الجو والبر والبحر وعلى طبائع الجماد والنبات والحيوان.

يصنع المحراث ويحرث الأرض ويبذر البذور ويغرس المغروسات وينتظر المواسم ويحصد ويجمع الغلات.

يصنع المنجل ويحصد... يصنع الرحى ويطحن... يصنع المعجنة ويعجن... يصنع التنور ويخبز... يصنع المدفئة ويتدفأ... يصنع المغزل ويغزل... يصنع الجومة وينسج... يصنع الإبرة ويخيط.

14. وإنه كائن حي اجتماعي منطقي ناطق قادر على إنشاء نظم عقلية قائمة على قدرته في تسمية الأشياء وتجريد المعاني والمفاهيم وإقامة النسب والعلاقات بين الأشياء وبين الأفكار وبين الأفكار والأشياء.

15. وإنه قادر على وصف نفسه والآخرين والبيئة: متخذاً من هذا الوصف وبه موقفاً من نفسه ومن الآخرين ومن البيئة، مقيماً هذه المواقف على القوانين: وضعية وطبيعية... أو قل إن شئت انه يرقى إلى هذه المواقف بقوانين يرقى إلى الطبيعي منها بالعلوم، ويرقى إلى الوضعي منها

بالتشريع، ويصون ويحمي هذه القوانين بالآداب وبالفنون.

16. إنه، إذن، كائن يتخطى حدود الطبع إلى حدود الالتزام بقانون.

17. يتخيل ويتذكر... يفكر... يربط بين الأفكار... يربط بين الأخيلة... يقيم النسب والعلاقات... يستنتج النتائج من المقدمات ويصوغ قوانين منطق العقل.

18. يتخطى حدود ما هو كائن إلى حدود ما ينبغي أن يكون... ينفرد برأي وله اسم ويستعجل مجيء المستقبل الأفضل بالأحلام قبل ظهور شروط هذا المجيء.

19. يطور ويتطور مستبقاً التطور بالأحلام وبالآداب وبالفنون.

20. يحب ويكره... يحترم ويحتقر: يحب ويحترم النافع الملذ الجميل، ويكره، ويحتقر الضار المؤلم القبيح، وينشأ بين طرفي هذا المحور الآداب والفنون تراجيدية من جهة أنه يتألم ويحزن ويبكي وكوميدية من جهة إنه يلتذ ويسر ويضحك.

21. يغني ويرقص ويؤلف الألحان والكلمات من الأصوات... يرسم وينحت ويسرد القصة ويؤلف الأشعار ويدون ويقرأ المدون كتابة بالحروف وبالكلمات.

22. وله نظام تربوي وتاريخ يقومان على نقل خبرة وتجريب الإنسان من جيل إلى جيل ضمن حدود:

أولاً : الإنسانية باعتماد الإنسان غاية وطرح ثقة بقدراته الحسية والعقلية والعاطفية.

ثانياً : التطورية باحترام حتمية سنة التطور في الطبيعة وفي التربية وفي التاريخ.

ثالثاً : الديناميكية... باعتماد الحركة أصلاً في البناء التاريخي الثقافي الحضاري المدني وفي التطوير.

رابعاً : النسبية باعتماد الظرفية في الزمان وفي المكان عاملاً فاعلاً في التغير الدائم والصيرورة المستمرة.

خامساً : الحتمية السببية: باعتماد أن كل ما يكون بعد ان لم يكن فلوجوده حتماً سبب لا مصادفة في فعل الطبيعة ولا في سلوك الإنسان وأن التغير والتبدل حتم لا بد منه في فيزياء وكيمياء الموجودات وفي جميع أمور الإنسان المتناثرة بهذه الحركة في الموجودات لكنه يفترض الحرية احتجاجاً على ولادة لا حرية فيها ولا مساواة.

23. لا تربية بلا تاريخ، ولا تاريخ بلا تربية... ويظل التاريخ نظرية تربوية بمفهومه العام مثلما تظل التربية - نظرياً وتدريباً - وسيلة غير بديلة لنقل خبرات وتجريب الإنسان في التاريخ منذ بداية وعيه عبر كل مراحل تطوره من جيل إلى جيل لتطويرها والانتفاع بها ورفعها إلى الأجيال الصاعدة في التاريخ... وهذا ما لا يقدر الإنسان عليه إلا بالثقافة التي يجب - لا بد من هذا الوجوب - أن تكون تربوية تاريخية معتمدة الجيل موضوعاً للأشياء على الفضيلة التي منها حب الحياة والعمل والتعاون والعدل والجمال على نحو ما يلي من التمازج التربوي الثقافي في البناء.

أولاً : تسليح الجيل بخبرة التاريخ.

ثانياً : تدريبه على تطويرها والانتفاع بها.

ثالثاً : تدريبه على اتخاذ مواقف حاسمة من موقع المسيطر على الطبيعة.

رابعاً : تدريبه على اتخاذ مواقف حاسمة من موقع المتفوق على الذات

خامساً : صرف خيرات تفوقه على نفسه إلى خيرات سيطرته على الطبيعة: الذي يعني صرف العدل والتعاون إلى التخصص والإخلاص في العمل وقسمة الخيرات.

هناك، إذن، تلازم محتوم - لا بد من هذا الحتم - بين الثقافة والتربية والحضارة وإن تاريخ الثقافة والتربية والحضارة والمدنية واحد متحد: إنه تاريخ البناء الثقافي والحضاري القائم على سيطرة الإنسان على الطبيعة وتفوقه على الذات.

25. هناك إذن علاقة ملازمة محتومة بين البناء الثقافي والبناء الحضاري والبناء المدني وإنك تستطيع أن تضع هذا التلازم على هذا النحو: لا تكون الثقافة إلا بالعلم وبالفن وبالأدب.. ولا تكون الحضارة إلا بالسياسة وبالتشريع وبالأخلاق.. ولا تكون المدنية إلا بالزراعة وبالصناعة وبالعمارة.

26. لا ثقافة بلا تربية.. ولا تربية بلا ثقافة.. ولا حضارة إلا بتداخل الثقافة والتربية في تاريخ البناء ضد الاستنزاف والاستغلال والاستعباد، وضد كل ما قد يؤدي إلى مصادرة حرية الازدهار.

27. لا يكون الازدهار إلا على قدر مبلغ الإنسان من السيطرة على الطبيعة والتفوق على الذات.

28. لا تكون السيطرة على الطبيعة إلا على قدر مبلغ الإنسان من معرفة قواعد وقوانين سلوكها معرفة سببية يقدر بها على التنبؤ بأحداث وظواهر المستقبل.

29. لا يكون التفوق على الذات إلا على قدر تحرير الإنسان من الخوف.. وهذا ما لا يكون إلا بتطوير وجدان اجتماعي تطويراً يصير به حب الأمن والمسالمة والجمال تكويناً ثقافياً ممازجاً بالتداخل لحب الذات والحياة وحرية الازدهار.

30. إن الثقافة نسغ شجرة التاريخ الذي بها بدأ وبها تطور وبها لا بغيرها يزدهر ما دامت نهايات الأمور محكومة بأوائلها في سنة التطور وتسلسل أسباب ظواهر الطبيعة وأحداث التاريخ.

متاعب الفلاسفة

«هل كان قط فضاء ولم تكن فيه أشياء؟»

«هل كان قط لا شيء في الفضاء؟»

«هل يمتد الفضاء بعد تناهي امتداد الأشياء؟»

نحن الآن في قاعة الدرس... إن هذه حقيقة لا يشك فيها منا أحد... وإلا، فهل من مرتاب قد يقف وقوف الشاك - بأي من أسباب الشك - في هذا الأمر؟

ونحن الآن في هذه القاعة، جزء من الامتداد متصل غير منفك عن الممتد في المكان كما نحن جزء من ممتد متصل غير منفك عن الامتداد في المكان: نحن الآن محاطون بالامتداد المتصل ممتداً بعد ممتد بلا انفصام... ونحن الآن محاطون بالامتداد المليء بالممتدات المتصلة في المكان: نحن محاطون بهذا الامتداد في المكان... ونحن لا يمكن أن نكون إلا في مكان نتموضع فيه مكاناً، ونقوم به مقوماً محيطاً ومكاناً لكل الموجودات... إن الحلول في مكان شرط كل شروط تحقيق وجود الأجسام على أي نحو من الأنحاء... إن كل ذرة من ذرات هذا الكون موجودة بقدر ما تحتل حجماً أو امتداداً في المكان... وكل هذه بديهيات معلومة عند الجميع لا يشك في أمر صحتها أحد من الناس.

ونحن الآن في قاعة الدرس يحتل كل واحد منا حجماً بقدر حجمه في المكان... وقل - إن شئت تعبير آخر - إن كل واحد منا يحتل حجماً

بقدر ما أزاح من مادة فحل محلها في المكان الدائم الامتداد من أزل الآزال إلى أبد الآباد.

ونحن الآن في قاعة الدرس نقوم بها مكاناً لا نشك ولا يشك أحد في أمر هذا القيام ما دام أمر قيام الجسم بنفسه غير محاط بمكان محالاً من المستحيلات.

وكل هذا معلوم بداهة عند كل الناس... لا فلسفة في الأمر، ولا تفلسف، ولا متاعب فلسفات... لكن متاعب الفلسفة تبدأ من حيث سؤالك: ما المكان؟ كيف نعرفه إذا أردنا تعريفه بعبارة لغوية بالكلمات؟ هل هو مكان الممتد؟ أم أنه مكان الامتداد؟ هل هو غير الامتداد مجرداً تجريداً ذهنياً - بعد الحس والملاحظة والتجريب - من الممتدات؟

هل المكان - من أنه جهة الامتداد - سابق في الوجود على الممتدات؟ أم إن المكان لا يوجد إلا بوجود الممتدات مثلما الممتدات لا توجد إلا بوجود المكان؟ أم أن المكان غير الامتداد الذي تقوم به الممتدات؟ أم انه الفضاء في كل الأحوال؟ وأن الأجسام توجد ولا توجد بقدر ما تمتد ولا تمتد في الفضاء؟ هل للفضاء امتداد مستقل عن امتداد الممتدات؟ هل مر زمن كان فيه فضاء ولم تكن في الفضاء أشياء؟ وهل يجيء زمن فيه فضاء وليس في الفضاء أشياء؟ هل الفضاء يقوم بالممتدات مقوماً يفوم به وينتسب إلى الوجود بهذا القيام؟ أم إن له وجوداً مستقلاً عن الموجودات التي شرط كل شروط وجودها أن تمتد متموضعة في مكان من الفضاء؟

هل الممتدات قائمة بذاتها أم أنها قائمة في مكان من الفضاء؟ هل الفضاء قائم بذاته؟ أم أنه مجمل أمكنة الممتدات؟ هل للفضاء أن يمتد بعد انتهاء امتداد الممتدات؟ أم أن هذا امتداد مستحيل مثل استحالة أن تمتد الموجودات بعد انتهاء امتداد الفضاء؟

ونحن الآن - بناء على الذي ذكرناه وعلى غيره - قائمون بقاعة

الدرس لا بذواتنا، فهذا قيام مستحيل يفني وجودنا وينفيه متى ما حصل المحال.

- وقاعة الدرس هذه قائمة لا بذاتها... بل إنها قائمة في الذي تتموضع فيه... إنها قائمة بالجامعة.
- والجامعة هذه قائمة لا بذاتها... بل إنها قائمة في الذي تتموضع فيه... إنها قائمة في المدينة.
- والمدينة على هذا النحو نفسه قائمة بالقطر.
- والقطر قائم - على هذا النحو نفسه - بالقارة.
- والقارة - وهذه حقيقة جغرافية - قائمة بالكرة الأرضية.
- والكرة الأرضية - وهذه حقيقة فلكية - قائمة بالمنظومة الشمسية.
- والمنظومة الشمسية هذه قائمة لا بذاتها بل إنها قائمة بالكون.

وكل هذه حقائق راسخة لا يختلف حولها أحد مع أحد، وليس فيها ما قد يتعب رأس أحد من الناس.

لكن متاعب الفلاسفة تبدأ من حيث تسأل - ولا بد إنك تسأل - أهذا الكون قائم بذاته، أم إنه قائم بغيره استمراراً واستئنافاً لاطراد القيام بالغير مثلما نحن قائمون بهذه القاعة، وهذه القاعة قائمة بالجامعة والجامعة قائمة بالمدينة والمدينة قائمة بالقطر والقطر قائم بالقارة والقارة قائمة بالكرة الأرضية والكرة الأرضية قائمة بالمنظومة الشمسية والمنظومة الشمسية قائمة بهذا الكون.

أهذا الكون قائم بذاته؟ أم إنه قائم بغيره؟ وهذا سؤال يبهت العلم عنده ويبرد وتحتر الفلسفات بكل مقومات المبالغة بقدرة العقل على إدراك ما لا يقع ضمن حدود مجال إدراك الحواس.

وقامت من عند حد وجوب مواجهة هذا السؤال في قواعد وأصول التمذهب الفلسفي العام حول محورين في التفسير هما: محور أحادية

التفسير ومحور ثنائية التفسير عند المفترق الأساس لجميع اتجاهات التمذهب الفلسفي.

محور أحادية التفسير: إنه المحور الذي تدور حوله الفلسفات التي ترى أن هذا الكون قائم بذاته قياماً يتبعه - حتماً - أن يكون هذا الكون مبرراً لوجوده ومفسراً لأحداثه... وهذا سبيل كل الفلسفات المادية عامة وسبيل كل النزعات الحسية والتجريبية في البحث وطرائق العلم ونظرية المعرفة بتفاوت بالدرجة لا بنوع الاتجاه والمنحنى العام.

محور ثنائية التفسير: إنه المحور الذي تدور حوله الفلسفات التي ترى أن هذا الكون غير قائم بذاته: الأمر الذي - حتماً - يتبعه أن لا يكون مبرراً لوجوده ومفسراً لأحداثه... وهذا سبيل الفلسفات المثالية العقلية عامة، وسبيل النزعات العقلية التي تذهب مذهب الاعتقاد بأسبقية الكلي المطلق المجرد (الذي منه الجمال والعدل) على الجزئي النسبي المحسوس (الذي منه الجميل والعادل) في الوجود: الأمر الذي ينصرف إلى أسبقية الفكر على المادة: الأمر الذي ينصرف إلى أسبقية اللا متناهي على المتناهي المحدود: الأمر الذي ينصرف إلى أسبقية القوانين على أنماط السلوك وإلى أسبقية التقدير على المقادير... وتظل - في نظرنا - المسألة الفيزيائية الفلكية بين تناهي الفضاء قائمة حول السؤال: هل كان قط فضاء ولم تكن في الفضاء أشياء؟ وما الفضاء المطلق المجرد من الأشياء؟ إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تتصف:

أولاً: بالامتداد: الأمر الذي يعني الامتداد في الأبعاد الثلاثة: الذي هو شرط من شروط احتلال موضع في المكان: الأمر الذي يعني الاتصاف بالوجود جراء قيام في المكان من الفضاء.

ثانياً: بالمقاومة واستمرارية الحركة والبقاء والتجاذب بقوة مقدارها حاصل ضرب الكتلتين في مربع المسافة بينهما... ولا مسافة إلا في المكان... ولا تجاذب ولا مقاومة إلا بالحركة... ولا حركة إلا بنقلة المتحرك في المكان.

ثالثاً: بالقيام بالغير... إن كل ذرة من ذرات هذا الكون قائمة بغيرها... وإن هذا القيام بالغير شرط لازم من شروط الحركة والمقاومة والتجاذب... وإن هذا الغير الذي تقوم به ذرات هذا الكون هو المكان الذي هو شرط من شروط حركة المتحرك الذي لا يتحرك إلا بامتداده في الأبعاد الثلاثة واحتلاله موضعاً في مكان من الفضاء.

إن كل ما في هذا الكون من أجسام قائم - حتماً - بغيره لا بالذات... فهل هذا الكون قائم بذاته؟ أم إنه قائم بغيره، أم إن شأنه شأن أي من ذراته بهذا القيام؟

تلك هي المسألة الفلسفية الكبرى التي لا نعتقد أن الفلسفة قد واجهتها واقفة وقوف الحاسم الآمر في التحريات... بل إنها مسألة التحدي الأكبر عند مفترق طرق الفلسفات... وإنك الآن - أينما كنت - وإضافة إلى ما قد تكون - جزء من امتداد متصل في مكان من الفضاء... وإنك الآن - دعنا نتحدث بلغة الاتكاء - متكئ على كرسيك تقرأ جريدة: فالجريدة متكئة على يديك، ويداك متكئتان عليك، وأنت متكئ على الكرسي، والكرسي متكئ على قاع الغرفة، والغرفة متكئة على قاع المدينة، والمدينة متكئة على القطر، والقطر متكئ على القارة، والقارة متكئة على الكرة الأرضية، والكرة الأرضية متكئة على المنظومة الشمسية ،والمنظومة الشمسية متكئة على هذا الكون.

ومن عند هذا الحد الذي هو حد اتكاء المنظومة الشمسية على هذا الكون يبدأ السؤال:

هل هذا الكون متكئ على غيره مثلما أنت الآن متكئ على كرسيك، ومثلما هذه الجريدة متكئة على يديك... أم إن هذا الكون متكئ على نفسه قائم بذاته ممتداً إلى ما لا يتناهى الامتداد في الفضاء؟؟... هل هو متناه ومحاط مثلما أنت الآن متناه ومحاط؟

إن آخر مبلغنا من العلم بهذا الشأن هو المبلغ الذي انتهى إليه اينشتين

باستنتاجه إن هذا الكون (متناه وغير محاط) مدخلاً بهذا الاستنتاج تعديلاً على رأي نيوتن المنتهي إلى أن هذا الكون (متناه ومحاط).

ولم يأتنا من العلم مبلغ بعد الذي جاءنا من مبلغ نيوتن واينشتين منه غير الذي طلع به على الدنيا ايديون هابل عام 1929 مستنتجاً «إن الفضاء في تمدد مستمر، في نظريته (التمدد الفضائي) النظرية التي أبطل فيها كل نفوذ اينشتين بهذا الشأن».

وأنت: أليس لك أن تسأل: إلى أين ينتهي هذا التمدد في الفضاء؟ إنها - ظن ما شئت - مسألة سقوط الفلسفات كلها ومسألة اندحار العلماء... فأين الشعراء.

أول ما بدأ الأدب

هناك الكوارث: ومنها الزلزال والبركان والفيضان... وهناك الأوبئة: ومنها الجدري والحصبة والطاعون... وهناك الشرور: ومنها البخل والجبن والحسد..

وإن الكوارث تجيء من الطبيعة على كل الموجودات الواقعة ضمن حدود التعرض للكوارث في المكان لا فرق بين حي وجماد.

وإن الأوبئة تجيء من الطبيعة على بعض الأحياء ضمن حدود التعرض للأوبئة في المكان حسب مدى مقاومة وقوة الكائن الحي إزاء الوباء... وإن الشرور تجيء من الإنسان على الإنسان على قدر موقع الإنسان من سلم الارتقاء في التنظيم التربوي والاقتصادي والتشريعي ونقاء الضمير وتماسك الوجدان: ولا يبلغ الإنسان مقداراً من الارتقاء في هذا التنظيم إلا بقدر ما يمحق من الكوارث والأوبئة والشرور ويستجلب لنفسه الخيرات حباً وعدلاً واحتراماً وأمناً وجمالاً ورزقاً حلالاً من كسب حلال وسط حوادث وظواهر معروفة الأسباب... وعلى قدر معرفة الأسباب... يكون الاستكثار من الخيرات... وإلا فكيف تستكثر من الخير ما لم تعرف الأسباب إليه؟... بل كيف تمحق الشر ما لم تعرف أسباب نشوئه فتزيله بإزالة هذه الأسباب أو بالتوسل بأسباب تبطل فعل أسبابه؟؟.

ويظل جوهر الثقافة والحضارة والمدنية والتطور والتربية والتاريخ معرفة الأسباب للاستكثار من الخيرات بواسطة استبعاد العوامل الفاعلة للشر واستجلاب العوامل الفاعلة للخير... وهذا ما لا يكون إلا بالسيطرة على الطبيعة والتفوق على الذات.

ولا سيطرة على الطبيعة إلا على قدر معرفة الإنسان بقواعد وقوانين سلوكها وأسباب ظواهرها... وهذا ما لا يكون من جهة الإنسان إلا بالعلم.

ولا تفوق على الذات إلا على قدر معرفة الإنسان بقواعد وقوانين السلوك الجمالي وأسباب حوادثه... وهذا ما لا يكون من جهة الإنسان إلا بالأدب ويقصد الأدب أول ما نشأ.

وكان أن نشأ الأدب قبل العلم... وكان أن توسل الإنسان بالأدب وسيلة لدرء أخطار الكوارث والأوبئة والشرور والاستكثار من الخيرات مادية ومعنوية.

وكان أن توسل الإنسان بالأدب وسيلة لدرء الأضرار المادية واستجلاب الخيرات المادية قبل أن يتوسل به وسيلة لدرء الأضرار المعنوية واستجلاب الخيرات المعنوية.

وخاب الأدب في درء أخطار الكوارث والأوبئة.

وتطور الأدب من تصورات وأخيلة وبوادر رسم ونحت ورقص وتراتيل وأدعية طقوس إلى دائرة ثقافية محكومة بالشرائع التي أول ما تكاملت في شريعة حمورابي فكمل بها اختمار الحرية والمسؤولية والإلزام والجزاء ومحكومة بالملاحم التي أول ما تكاملت بملحمة جلجامش فكمل بها اختمار ضرورة تحديد موقف الإنسان إزاء نفسه وإزاء الطبيعة وإزاء الكون جملة وتفصيلا على قدر ما يستطيع الإنسان إنشاء في الأدب، ومحكومة بالعلم الذي أول ما تكامل في علوم البابليين فكمل به اختمار التطلع إلى معرفة تجريبية كمية ورياضية.

ولم يستعن الإنسان حتى هذا الحد من تطوره الثقافي والحضاري بغير حواسه المجردة مطلقة العنان كله للأخيلة والتصورات من عند حد انتهاء قدرة الحواس على الإدراك ومن عند حد العجز عن معرفة الأسباب الفاعلة للظواهر ظواهر الطبيعة وللحوادث حوادث الإنسان.

وظهرت فلسفة أرسطو عند اليونانيين... وأطلق الفلاسفة العنان كله

للتأمل العقلي ضمن حدود أحكام المنطق من عند حد انتهاء قدرة الحواس على الإدراك ومن عند حد العجز عن معرفة الأسباب الفاعلة للظواهر... وتوسل الإنسان خلال هذه المرحلة من التاريخ بالمنطق وسيلة لدرء الضرر ومعرفة الطبيعة وما بعد الطبيعة وإعادة بناء التربية والسياسة والأخلاق والمدينة الفاضلة لإنسان فاضل.

وهكذا أخذت الفلسفة على عاتقها وظيفة الأدب والتشريع والملاحم والعلم.

ولم يطلق الفلاسفة عناناً للتأمل العقلي إلا بعد حدود المعرفة الحسية التجريبية وقدرتها على إنشاء معرفة صحيحة بالتطبيق عملاً وفعلاً بما في ذلك معرفة الأسباب الفاعلة لظواهر الطبيعة وحوادث الإنسان.

وانحسرت الفلسفة شيئاً بعد شيء أمام مد العلم التجريبي على قدر نجاح العلم في التعليل ومعرفة الأسباب الفاعلة في ظواهر الطبيعة وحوادث الإنسان، وعلى قدر نجاحه في مدى معرفة العلاقات والنسب والمقادير في تحليل وإعادة تركيب الموجودات، وعلى قدر نجاحه في التعبير عن المعرفة بصيغة كمية رياضية... واسترد العلم بهذا وظيفته التي كان قد تركها للفلسفة منحسراً أمام المنطق والتأمل العقلي والأخيلة والتصورات التي كانت الفلسفة قد استحوذت عليها مسقطة الأدب.

لم تبق الفلسفة في انحسارها أمام مد العلم وظيفة للأدب في مجال الاستكثار من الفضائل ودرء الشرور... وصار الأدب في أبهى وأرقى حالاته استنباطاً للنفس، وتأملات تصورية منصبة على انعكاسات الحوادث والظواهر في النفس، وتحليلاً وإعادة تركيب لانفعالات وعواطف النفس... وإلا فماذا تسمي آداب (جوته) و(وسرفانتس) و(دانتي) و(وشكسبير)؟

وظهر (ديكنز) و(تولستوي) و(تشيخوف) و(برناردشو) وانتزعوا الفلسفة وظيفة الاستكثار من الفضائل ودرء الشرور.

وظهرت درة أدبية قادها (همنجواي) و(كافكا) و(جيمس جويس)

و(أليوت) و(كامو) و(سارتر) و(ألبرتو مورافيا) و(كولن ولسن) وحاول هؤلاء في الردة أعادة الأدب إلى ما كان عليه في عهود (سرفانتس) و(جوته) و(دانتي) و(شكسبير): منتفعين في ترسيخ قواعد الردة من كشوف (داروين) و(فرويد) و(بافلوف) و(اينشتين).

وانتهت الحرب العالمية الثانية في القرن العشرين وتكاملت بانتهائها قدرة العلم على التدمير والتخريب بكوارث أكثر خطراً في الضرر من كل الحصبة والجدري والسل والطاعون والسرطان.

وتقوقعت الفلسفة مندحرة محاصرة مهجورة بلا فلاسفة يعيدون فيها النظر... وتاه الأدباء يتسكعون في متاهات الحيرة يندبون حظهم وحظ الأدب... وبدأ الفلاسفة بالانقراض واحداً بعد الآخر في الربع الخير من القرن العشرين حتى لم يبق الدهر منهم واحداً لمراجعة الموقف الفلسفي من أمر... وتلهى الأدباء بعد الحرب العالمية الثانية عامة وفي الربع الأخير من هذا القرن تلهي من لا يعرف الجد من الهزل، وتلهي من لا يعرف الخير من الشر، وتلهي من لا يؤمن بشيء ولا يكفر بشيء ولا يرى وظيفة حضارية للأدب... وإلا فدلنا نحن سكان هذي الأرض في الربع الأخير من القرن العشرين على أديب منا ينتظره سكان هذي الأرض في هذا القرن الحادي والعشرين بشيء من اهتمام.

منع الأدب نفسه من ممارسة وظيفة درء مخاطر الكوارث والأوبئة بناء على عجزه في مجال معرفة أسبابها فإمحاق هذه الأسباب... وإلا فعلى أي من الأسباب انحسر مرتين: مرة أمام مد العلم ومرة أمام مد الفلسفة؟

ومر بعد هذا الانحسار قرن ومر قرنان ومرت قرون فإذا العلم برهن على قدرته في درء أخطار الكوارث والأوبئة عن الإنسان يبرهن عند نهاية النصف الأول من القرن العشرين على قدرة طاغية في مجال التدمير والتخريب بكوارث وأوبئة أشد تدميراً وتخريباً وأكثر فتكاً من كل الكوارث والأوبئة التي تصدى لها الأدب بكل الصدق والإخلاص وحب الحياة.

لماذا، إذن، لا يقوم الأدب إلى استرداد وظيفته التي قعد عن القيام بها مرتين: مرة منحسراً أمام مد العلم ومرة أمام مد الفلسفة؟... لماذا لا يعود الممنوع بزوال المانع؟

إن القرن الحادي والعشرين لا يهتم بالذين دخلوه من باب الأدب إلا على قدر ما يستردون من وظائف كان الأدب قد تركها عبر مراحل تطور حضاري في ذمة العلم.

■ يظل (همنغواي) و(وكافكا) وجيمس جويس) و(أيليوت) و(سارتر) و(كامو) و(مورافيا) و(كولن ولسن) و(سرفانتس) و(جوته) و(دانتي) و(شكسبير) أعظم من كل الفلاسفة عبر التاريخ كله في مجال التحليل وإعادة التركيب النفسي حول محور الاتزان والتوازن النفسي وعلاقته بالاتزان والتوازن الأخلاقي والتربوي والاجتماعي على أسس سايكولوجية.

■ ويظل (ديكنز) و(برناردشو) و(تولستوي) و(تشيخوف) أعظم من كل الفلاسفة عبر التاريخ كله في مجال التحليل وإعادة التركيب الاجتماعي حول محور العدالة الاجتماعية وعلاقته بالاتزان والتوازن الاجتماعي.

ولم يبق توزيع العمل والتخصص الثقافي للفلسفة في هذا العصر غير منطق يتلهى به المناطقة خارج حدود العلم والأدب والفن وخارج تاريخ التطور الثقافي الذي بدأ في التاريخ - أول ما بدأ - من عند حد قيام الأدب - أول ما نشأ - وسيلة لدرء أخطار الكوارث والأوبئة والشرور. وإلا فما وظيفة الفلسفة؟ ما وظيفتها وأحكام المنطق قواعد ضبط أحكام عقل ومقياس صحة تفكير وفكر يبرر التدمير والتخريب والشرور مثلما يبرر الإصلاح والتعمير والخيرات ويظل منطقياً في التبريرين؟

إن العلم اليوم قادر على الاستكثار من أسباب الخيرات مثلما هو قادر على الاستكثار من أسباب الشرور.

إن منطق العقل قادر على تبرير العلم في الحالين حسب موقع الفيلسوف بين الغايتين.

ومواقع الفلاسفة كثيرة مختلفة... لكنها تظل ورغم كل كثرتها ورغم كل اختلافها محكومة بمزاج الفيلسوف وموقفه إزاء العلم نحو هذه الغاية أو تلك.

وتظل أمزجة ومواقف الفلاسفة محكومة بما ليس هذا محل إحصائه من عوامل فاعلة تتجه بالفيلسوف نحو الدفاع بالمنطق عن أي من الضدين ويظل الدفاع منطقياً في الحالين.

ومن هذه العوامل الفاعلة تكوين الفيلسوف البايولوجي وحالته الفسلجية وحظه من الوراثة في هذا وفي الاستعداد العصبي والنفسي وفي الموروث الثقافي... وإلى آخر ما قد تذكر من عوامل منها الوضع المالي والمركز الاجتماعي والنصيب من التربية والموقع الجغرافي وحوادث الزمن المعاصر... والخ... وكل هذه داخلة متداخلة تداخل تشابك في التأثير والاستجابة وتكوين الانفعالات والعواطف والأفكار الممنطقة بالمنطق للدفاع عن الانفعال وعن ضدها، وعن العاطفة وعن ضدها... وعن تبرير أي من الغايتين المتضادتين... ويظل المنطق منطقياً في الحالين؟

▪ وكان أوائل الفلاسفة علماء.

▪ وكان أوائل العلماء فلاسفة.

▪ وبدأت الفلسفة أول ما بدأت علماً.

▪ وينتهي العلم عند أعلى مبلغه من العلم إلى تخوم الفلسفة وتصير إجاباته فلسفية - منطقية - غائية - غير سببية - غير قادرة على التعليل.

▪ وضع العلم البابلي أساساً للتنظير الفلسفي الإغريقي.

▪ مهد هذا التنظير الفلسفي الإغريقي وكان أساساً لمناهج العلم الحديث.

▪ وتظل الفلسفة تبريراً عقلياً منطقياً لأي من غايتي المنتفع من العلم في التطبيق... إن الفلسفة القادرة على تأييد المنتفع بالتطبيق في مجال الخير قادرة على تأييد المنتفع بالتطبيق في مجال الشرور.

إن الفلسفة التي أعلت شأن العلم بما قدمت له من مناهج رادة إليه بهذا فضل قيام نظرياتها عليه أول ما بدأت أصبحت غير قادرة على الحسم في مجال غايتها الأخلاقية العليا التي هي الخير.

وهناك العلم النظري الذي هو العلم الصرف الذي هو معرفة أسباب الظواهر وقوانين سلوك الموجودات... وهذا العلم لا خير ولا شر، ولا فضيلة ولا رذيلة، ولا عدل ولا ظلم، ولا حق ولا باطل... إنه الحقيقة، وإنه حقيقة بقدر ما يطابق حقيقة صفات الموضوع... ولا يصدق على هذا العلم من الصفات إلا أنه معرفة نافعة... وكل المعرفة نافع.

وهناك العلم التطبيقي نحو التكنولوجيا فالتصنيع فالمتاجرة بالمصنوعات والصناعة سلعة في السوق.

وهناك التاجر الذي هو لا عالم ولا فيلسوف ولا أديب لكنه يوظف الصناعة في خدمة التجارة والمتاجرة، ويوظف التكنولوجيا في خدمة الصناعة ويوظف اختبارات التطبيق في خدمة التكنولوجيا.

ويوظف حقائق ومنافع وفوائد العلم النظري في خدمة التطبيق نحو التكنولوجيا فنحو الصناعة فالمتاجرة نحو زيادة أرباح التجارة نقوداً فلوساً وملايين المليارات ومليارات الملايين وعباقرة العلم النظري يسهرون في مختبراته ويفلسون ويفلسون ويحلمون ويعافون الدنيا كلها وكل مباهج الحياة، ويتقشفون ويزهدون ويتصوفون فيبدعون ويحبون الحياة، الحياة من خلال الإبداع والإبداع من خلال الحياة ويفرحون بالحقيقة وبالكشف الجديد. ويتلقى التاجر كشوف العلماء بالتطبيق وبالتكنولوجيا وبالتصنيع وبالمتاجرة.

- التاجر: إنسان يستثمر العلم ويستنزف الفلسفة ويدجن الأدب.

وليس التاجر أديباً.

وليس التاجر فيلسوفاً.

وليس التاجر عالماً.

لكنه إنسان عنده فلوس وحرية تصرف بالفلوس لاستثمار العلم واستنزاف الفلسفة وتدجين الأدب... وإنه يستطيع بهذا الاستثمار والاستنزاف والتدجين أن ينتج الكوارث والأوبئة والشرور وأن ينشر الفقر والجهل والمرض والخوف وفقدان الأمن واليأس والتعاسة والملل.

وإنها مسؤولية الفلسفة... وإنها مسؤولية الأدب... ذلك لأن العلم لا يستطيع أن يحفظ نفسه من أن يستثمر... وإلا فكيف؟؟

بل إنها مسؤولية الأدب... ذلك لأن الأدب لا يقدر على تبرير الكوارث والأوبئة والشرور ما لم يلجأ إلى منطق الفلاسفة وأحكام العقل المنطقي... ولا يخلد الأدب إلا بما قام عليه أول ما بدأ أدباً صرفاً ثائراً ضد الكارثة وضد الوباء وضد الشر... وأدباً صرفاً غير منطق بما قد يبرر به استثمار المعرفة تجارياً ضد الإنسان.

وكان أن قام الأدب أول ما بدأ على البراءة والعفوية والإخلاص والصدق... وكان أن بدأ من اللا وعي: : من اللا شعور: من الطفولة: إنه الأخيلة والتصورات والأحلام بلا مرض، وبالمعرفة بلا جبن، وبالجمال بلا قبح، وبالراحة بلا تعب، وبالأمل بلا يأس، وبالأمن بلا خوف، وبالطيران بلا أشرعة، وبلا مجاذيف، ويسافر أسرع من سفر الطيور، وبالصعود إلى القمر، وبرؤية الغائب، وبسماع البعيد، وبالفاكهة الشتوية في الصيف، وبالفاكهة الصيفية في الشتاء، وبكل ما قد يتمنى الأطفال مما قد حقق العلم وما لم يحقق بعد ومما بلغه فتلقفه التجار وأفسده... ولا متاجرة في الأحلام... ولا بيع في الحلم ولا شراء... وإلا فأي التجار يشتري منك أحلام نومك وأحلام يقظتك وأحلام طفولتك وأحلام الأدب.

إن التاجر لا يستطيع أن يفسد أحلام الأدب إلا التي حققها العلم معرفة نظرية قابلة للتطبيق والتكنولوجيا والتصنيع فالمتاجرة بالمصنوعات تحت خيمة أحلام التجارة ضد أحلام الأدب.

لكن التاجر يستطيع - على نحو ما ذكرنا - استنزاف الفلسفة وتدجين الأدب الممنطق.

وبعد فمن أي الأدباء أنت؟ ما مبلغك من العلم؟ ما مبلغك من الفلسفة؟ وما مبلغك من الثقافة؟ وما مبلغك من الأدب.

الجاحظ والمعري

- بلغ الجاحظ من العلم ومن الفلسفة ما لم يبلغه في أيامه إلا عالم فيلسوف.
- وبلغ المعري من العلم ومن الفلسفة ما لم يبلغه في أيامه إلا عالم فيلسوف.

لكنهما خلدا ويخلدان بالأدب الحالم الثائر ضد استنزاف الفلسفة لتبرير المتاجرة بالمعرفة وضد استثمار العلم تجارياً ضد أحلام الإنسان... إنه الخلود الذي لا يزول بزوال فلسفة أو بزوال علم حين تفرض أحكام التجديد وسنة التطور سقوط هذا العلم أو سقوط تلك الفلسفة.

تأديب الدرس الفلسفي

إنك لا ترى الجميل إلا وتثير الرؤية فيك إحساساً بالخوف عليه من الزوال، وإحساساً بالتطلع إلى ما هو أجمل.

فما الجميل الذي يرضيك وترضى به قسماً في القسمة وحظاً من الدنيا لا ترضى بغيره ولا تخاف عليه من الزوال ولا يبلغ بك الخيال مبلغ تصور ما هو أجمل منه؟

ما الجميل الذي لا تخاف عليه من طوارئ الأحداث؟

بل ما الجميل الذي لا تخاف أن يبلغ الذروة في الجمال فلا يرقى الواقع ولا يرقى الخيال إلى ما هو أكثر منه جمالاً؟

ما الجميل الذي ترضى به ويظل ثابتاً لا يتغير وتظل أنت راضياً لا تتبدل فتبدل فيه الرأي؟

ما الجميل المطلق في الجمال بلا حد فترضى به بلا حد ويستمر ثابتاً مطلقاً بلا حد وتستمر أنت منه ثابتاً بلا حد: لا تتبدل ولا يتبدل؟

إنه لا بد أن يكون الجميل الذي لا يتجزأ ولا يشارك أو يفارق جميلاً آخر بشيء ولا يتموضع في مكان فيجور عليه الزمان بالزوال.

إنه يجب أن يكون الجمال المطلق: الجمال الذي لا تحسه لا سمعاً ولا بصراً ولا ذوقاً.

والجمال الذي لا يكون أكثر أو أقل جمالاً من جميل آخر.

إنه الجمال الذي لا يزول.

إنه الجمال الذي لا يشاركه في الجمال جمال آخر.

إنه الجمال الواحد المجرد المطلق... ولو كان في عالم الفكر جمالان لفسد المطلق، ولارتبكت اللغة، ولضاعت موازين البناء الإنساني في الثقافة والحضارة والمدنية والتاريخ.

والجمال في هذا مثل العدل: يشارك العاملين في العدل بمقدار وتشارك الأشياء الأفكار في الجمال بمقدار... ولا يكون الموضوع جميلاً إلا على قدر المشاركة في الجمال ولا يكون الموضوع عادلاً إلا على قدر المشاركة في العدل.

ومثلما أنت لم تر الجمال قط، فإنك لم تر العدل قط وإلا، فدلنا على أحد رأى العدل أو رأى الجمال.

والعدل واحد مثل الجمال لا يتجزأ وليس فيه أبعاض ولا تجوز عليه الإضافة ولا يتموضع في مكان ولا يجور الزمان عليه بشيء من العوامل التي تغير وتبدل الأشياء.

وإنك ترى الأشياء الطويلة والأشياء العريضة والأشياء العميقة على قدر مشاركة امتدادها في الطول والعرض والعمق.

إنك ترى الأشياء الحمر والأشياء الصفر والأشياء الزرق والأشياء الملونة.

إنك لا ترى الجمال.

إنك ترى الأشياء الجميلة.

إنك لا ترى العدل.

إنك ترى العادلين.

أفلاطونيون وأرسطيون

وميز أفلاطون عالم الفكر من عالم الأشياء.

وميز أرسطو عالم الفكر من عالم الأشياء.

واعتقد أفلاطون أن الجمال والعدل من عالم الفكر وأن العادلين والأشياء الجميلة من عالم الأشياء المحسوسة.

هناك إذن عالم فكر معقول... وهناك إذن عالم أشياء محسوس.

أي: هناك محسوسات... ومثال ذلك: هذا الرجل العادل، وتلك المرأة الجميلة، وهذه المرأة التي هي أجمل من تلك، وهذا الرجل الأكثر عدلاً من ذاك، وهذه المرأة التي كانت أكثر جمالاً، وهذا الرجل الذي كان أكثر عدلاً وهذه المرأة التي تبدو في الصباح أكثر منها جمالاً في المساء وهذا الرجل الذي يكون أكثر عدلاً في الغنى منه في الفقر... إنها أحوال العالم المحسوس عالم التغير والتبدل.

من أين جاءك التطلع إلى جمال لا تخاف عليه من الزوال ولا تتطلع إلى ما هو أجمل منه؟

ومن أين إذن جاءك التطلع إلى عدل لا تخاف عليه من الزوال ولا تتطلع إلى ما هو أكثر منه عدلاً؟

إن عالم المحسوسات والتجريب في الحوادث لا يفيدك بجميل إلا وتخاف على الجمال فيه من الزوال وتتطلع إلى ما هو أجمل منه.

إن عالم المحسوسات والتجريب في الحوادث لا يفيدك بعادل إلا

وتخاف على العدل فيه من الزوال وتتطلع إلى ما هو أكثر عدلاً منه.

من أين جاء إذن موضوع التطلع في النفس؟ ومن أين جاء موضوع الخوف في النفس؟

إنك تحس أنك تخاف على جمال قائم في النفس... وتحس أنك تخاف من زوال وتتطلع بفعل من هذا الخوف إلى الثابت الخالد الذي لا أجمل منه في الجمال ولا أكثر عدلاً منه في العدل.

من أين جاءك التطلع إلى ما لا وجود له في عالم المحسوسات.

أفلاطون: إنك تتطلع إلى الفكر في عالم المعقولات.

أرسطو: إنك تجرد من المحسوسات.

أفلاطون: الجمال سابق في الوجود على الأشياء الجميلة.

أرسطو: الأشياء الجميلة سابقة في الوجود على الجمال.

أفلاطون: المعاني والأفكار سابقة في الوجود على الصفات في عالم المحسوسات.

أرسطو: المعاني والأفكار محض تجريد من الأشياء المتصفة بها.

أفلاطون: الفكر سابق على الحس.

أرسطو: الحس سابق على الفكر.

أفلاطون: من العام إلى الخاص.

أرسطو: من الخاص إلى العام.

أفلاطون من اللون إلى الأشياء الملونة.

أرسطو: من الأشياء الملونة إلى اللون.

أفلاطون من المعاني الكلية إلى الموصوفات.

أرسطو: من الموصوفات إلى المعاني الكلية.

أفلاطون: من الكلي المطلق المجرد إلى الجزئي النسبي المحسوس.

أرسطو: من الجزئي النسبي المحسوس إلى الكلي المطلق المجرد.

أفلاطون: من الأسماء إلى المسميات.

أرسطو: من المسميات إلى الأسماء.

كولردج: إن كل إنسان يولد إما أرسطياً وإما أفلاطونياً... أي إنك إما أن تكون أرسطياً حسياً تجريبياً وإما أن تكون أفلاطونياً مثالياً عقلياً.

أفلاطون: المحسوس على نمط المعقول.

أرسطو: المعقول على نمط المحسوس.

افلاطون: القانون ثم الظاهرة.

أرسطو: الظاهرة ثم القانون.

غاليلو: العمل استقراء واستدلال... الاستقراء لجمع الحقائق وفهم الظاهرة بصفاتها والاستدلال لتعميم القانون... وهذا ما لا يرفضه أرسطي، وما لا يرفضه أفلاطوني، وما لا يرفضه فيلسوف إلا أن يكون فيلسوفاً يجيء به الهزل الفلسفي من اللا تاريخ إلى اللا فلسفة... وهذا ما لم يهزل به الدهر حتى الوقت الحاضر.

هذا من جهة مناهج العلم ،أما من جهة بناء المعرفة فإن الجميل جميل عند أرسطو بتصوره بصورة الجمال... والجميل عند أفلاطون جميل على قدر مشاركته في الجمال.

أفلاطون: الوجود مشاركة المعاني بمقدار وأن الموجودات لا توجد ولا تكون إلا على قدر المشاركة.

أرسطو: الوجود تصور بصورة الموجود الذي لا يوجد إلا على قدر التصور بصورة الأشياء.

وبعد، فهل إنك من الذين يعتقدون أن الفرق كبير بين أرسطو وأفلاطون؟

لا فرق بين الفيلسوفين ولا اختلاف وإلا فما الفرق بين اعتقادك (إن الظواهر يجب أن تجري مطابقة للقانون) وقولك (إن القانون يجب أن يصف ويحكم سلوك الظاهرة؟ وما الفرق بين قولك (إن العادل لا يكون عادلاً إلا على قدر مشاركته في فكرة العدل وقولك (إن العادل لا يكون إلا على قدر تصوره بصورة العدل).

أما إن وجدت في هذا الذي تذهب إليه بعضاً من تطرف فاعتدل نعتدل ونرفض المبالغة في تهويل الفرق بين أفلاطون وأرسطو.

ولا اعتدال في الفلسفة ما لم نهذبها بالأدب ونؤدبها بالفن، ونخلصها من النظر الاسكولاستيكي وأسلوب الدرس الاسكولاستيكي الذي ضيق آفاق الثقافة ليوسع الخلاف بين أفلاطون وأرسطو وهول كثيراً في الفرق بين أفلاطون وأرسطو ليضيق آفاق الثقافة... وكانت آفاق الثقافة الاسكولاستيكية ضيقة بلا أدب وضيقة بلا فن: لم يكن للاسكولاستيكين أدب وفن الإغريق... ولم يكن لهم أدب وفن عصر النهضة... ولم يكونوا على شيء من العلم أو بشيء منه.

وكانت ثقافة أفلاطون ثقافة فنية أدبية علمية... وهكذا كانت ثقافة أرسطو... بل إنهما قد بلغا الشأو في هذه الثقافة التي كان لهما منها النظر الفلسفي الذي أوقعه سوء حظ التاريخ تحت رحمة التخبط الاسكولاستيكي بلا فن وبلا أدب فأخرجوا الفلسفة من الثقافة الأدبية الفنية العلمية وأدخلوها في ثقافة فسيفساء المحاكمات المنطقية بلا تحصيل من العلم وبلا تحصيل من الفن وبلا تحصيل من الأدب... وإلا فما الفرق بين أفلاطون وأرسطو إذا نظرت إليهما من هذه الجهة:

إن مبلغ الموضوع من التصور محدود بمدى قبول المادة للصورة وبمدى قدرة الفاعل وبالغاية من الفعل... هذا رأي أرسطو.

إن مبلغ الموضوع من الوجود على مرتبة ما مرهون بمدى مشاركته في الفكرة... وهذا رأي أفلاطون.

ويتخطى الأدب الفني والفن الأدبي حدود الواقع ويعلو عليه... ولا تكون المطابقة بين الواقع والمحتوى الفني الأدبي إلا على قدر مطاوعة الواقع المحسوس لقبول (صورة) أو (فكرة) محتوى الفن أو الأدب... وهذا رأينا ورأيك أنت ورأي أرسطو ورأي أفلاطون ورأي كل الناس... وإلا، فهل من يعاند هذه البديهية؟

العمل الثقافي والحب الأولمبي

الفعل الطبيعي:

عناصر التكوين الأولى تتفاعل وتنتج المركبات اللازمة ضرورة لبداية وتطور وازدهار الحياة.

الصوت والحرارة والضوء موجات تنتقل وتنقل وتقوم بوظائف لازمة ضرورة لبداية وتطور وازدهار الحياة... الطاقة الكهرومغناطيسية تجذب وتدفع وتتداخل بقوى المقاومة وتتوازن وتنتج النظام اللازم لقوانين الحركة ودوران الأجرام في الأفلاك نظاماً لا بد منه لبقاء الموجودات وتطور وازدهار الحياة.

الطاقة الكهربائية تحرك وتنقل وتسخن وتبرد وتفعل المدهش اللازم ضرورة للتطور المدني وازدهار الحياة.

الرياح ترفع البخار وتجمع الغيوم وتسوقها إلى حيث تساقط المطر وتروي الأرض فتزدهر الحياة.

الأنهار تشق مجاريها مجرية معها أسباب ازدهار الحياة.

- لكنك لا تسمي هذه الأفعال عملاً.

الفعل الحيواني:

الطيور تبني الأعشاش وتستقر في الأوكار.

الفراشات تنتقل بين ذكور وإناث الأزهار وتقوم بالتلقيح ونقل اللقاح.

النحل يجمع الرحيق وينتج العسل.

الدواجن تنتج الصوف والريش والوبر والجلد واللحوم واللبن والبيض.

البلابل تغرد منتجة المؤنس من الألحان.

■ لكنك لا تسمي هذه الأفعال عملاً

الفعل النباتي:

الأزهار والورود تبث العطور وتزين المكان وتلطف الجو.

الغابات والأحراش تقلل من شدة حرارة وجفاف الهواء وتصفيه من الغبار وتقلل من شدة سرعته.

المثمر من النبات ينتج الفاكهة والخضر والبقول والحبوب.

■ لكنك لا تسمي هذه الأفعال عملاً.

خلاصة الشرح:

1. إنك لا تسمي حفر جميع أنهار الدنيا لمجاريها عملاً لكنك تسمي زرع شجرة في بستان عملاً... بل إنك تسمي حفر الإنسان لحفرة برأس أصبعه عملاً إذا كان فعله مقصوداً بإلقاء بذرة في الحفرة لغرض الإنبات على أن يكون الفاعل مدركاً حاسباً لما يلي من أحوال:

أولاً : سلامة البذرة وقوة الإنبات فيها من الداخل.

ثانياً : جودة التربة وصلاحها للإنبات ونمو الزرع.

ثالثاً : ملاءمة المناخ وظروف الجو.

رابعاً : توفر مياه الري وعدة الإدامة والعناية.

خامساً : الحاجة ماثلة في الطلب على الغلة.

سادساً : القدرة على التسويق وحسن العرض وحسب الطلب.

سابعاً : أن لا تكون بذرة فرداً إلا إذا كانت للزينة أو للطرافة أو لأغراض التجريب... ولا يكون الفعل عملاً حينئذ بل يكون بين الهواية والاختبار التجريبي.

ثامناً : أن لا يكون المزروع في جملة غلة تحقق فائدة ضمن حدود الحد الأدنى لحجم الإنتاج في العمل.

2. إنك لا تسمي جميع الذي تنتجه دواجن الدنيا عملاً... لكنك تسمي - خذ مثلاً - ندف الصوف أو غزله أو حياكته عملاً مثلما تسمي - خذ مثلاً آخر - استخراج الزبدة من اللبن عملاً... بل إنك تسمي التقاط الإنسان لبيضة واحدة من كوخ الدجاج عملاً إذا قام الفاعل بالفعل محترفاً مأجوراً لنفسه أو لغيره ضمن حدود الحد الأدنى لحجم الإنتاج في العمل.

3. إنك لا تسمي جميع إنتاج النبات من الغلة والثمر عملاً... لكنك تسمي الحصاد عملاً... بل إنك تسمي هز شجيرة مشمش عملاً إذا كان القصد من الهز نفض الناضج من الثمر على أن يكون هز الفاعل جزءاً من مهنة محترف مأجور لنفسه أو لغيره ضمن حدود الحد الأدنى لحجم الإنتاج في العمل.

4. إن فعل الفاعل لا يكون عملاً ما لم يكن الفاعل إنساناً فاعلاً بالإرادة الخيرة ضمن حدود دائرة حب الحياة والمحافظة على الذات وسد الحاجة ضمن حدود مستلزمات الازدهار ومستلزمات مقاومة أسباب الركود والتدهور والانحطاط والسقوط خارج تاريخ الصحة والصواب والبناء.

العمل الثقافي:

ولا سبيل إلى ازدهار الثقافة وتداخلها في تاريخ البناء الحضاري إلا بأن تتصف - إضافة إلى كل ما قد يراد لها أن تكون - بشروط وأركان العمل فعلاً وموضوعاً وغاية على النحو التالي:

1. سلامة الفكر أو الصورة وقوة التوليد فيها من الداخل وإلا كان الفاعل

كمن يبذر الفاسد من البذور الأمر الذي يجمع بين العبث والبطالة المقنعة بعيداً عن العمل.

2. جودة المكان وصلاحيته لتوليد ونمو الأفكار والصور وإلا كان الفاعل كمن يبذر في الأرض السبخة أو كمن يزرع النبات في غير موطنه.

3. ملاءمة الظروف والمناخ الاجتماعي وإلا كان الفاعل كمن يزرع في غير أوان الزرع.

4. أن تكون الفكرة أو الصورة مستدعاة بحاجة وإلا كان الفاعل كمن يعرض لبضاعة لا طلب عليها من مستهلك.

5. كفاءة الناشر والموزع وإلا كان الفاعل كمن يكوم البضائع بلا حساب لدى القدرة على التسويق.

6. أن لا تكون الفكرة أو الصورة فرداً وإلا كان الفاعل كمن يزرع حبة قمح واحدة ويحصد سنبلة واحدة ثم يلح بعد هذا الحصاد على أن يصطف مع الحاصدين.

7. أن تكون الفكرة أو الصورة متداخلة في بناء ثقافي من إنشاء الفاعل وإلا كان الفاعل كمن يصنع منجلاً وينصرف بعد ذلك إلى حرف لا علاقة لها بالحدادة مصراً على أن يصطف في صفوف نقابة الحدادين.

8. أن يبلغ الفاعل الحد الأدنى لحجم الإنتاج في العمل وإلا كان الفاعل كمن يهز في الموسم شجرة مشمش واحدة ويصر بعد ذلك على الاصطفاف في صفوف الفلاحين.

إنك لا شك تلاحظ عشرات الأسماء تظهر في الجرائد والمجلات وتجتاح الساحة الثقافية مدة فصل أو حول وتختفي الأسماء كأن لم تكن، وتظهر عشرات الأسماء الأخرى تملأ المنشورات الثقافية بما لا يقل طفافة وفطرية عن الذي ملأ به أولئك هذه المنشورات، ويمضي هؤلاء مثلما يمضي أولئك كأن لم يكونوا في الثقافة شيئاً مذكورا.

إنك قد لا ترى في هذا إلا علامة من علامات الصحة الآفلة في ذهاب الزبد جفاء... وهذه رؤية منهجية صحيحة لو يظل في قاع الساحة

الثقافية شيء مما ينفع الناس بعد ذهاب الزبد... أما أن يمضي الزابدون جيلاً بعد جيل وزبداً بعد زبد غير تاركين في الساحة الثقافية مبلغ الحد الأدنى من حجم العمل فهذا ما لا يدل إلا على السقوط في آبار البطالة المقنعة والعبث.

نعم لا تخلص حرفة في ميادين العمل من مجعجعين يتسربون إليها فيعيثون فيها جعجعة ويمضون يتلاشون كأن لم يكونوا... لكنك تجد أن الآخرين في ساحة العمل قد تركوا طحيناً وبلغوا به الحد الأدنى من حجم الإنتاج في العمل وأن مجمل متوسط حجم الإنتاج لم يتأثر بضوضاء المجعجعين الذين يطرأون متسربين إلى هذه الحرفة أو تلك في ساحات العمل ويمضون.

إن بلوغ العامل مبلغ الحد الأدنى لحجم الإنتاج في العمل شرط لا بد منه لقبول العامل في الحرفة واستمراره في تقاضي أجور وامتيازات وضمان تلك الحرفة.

لكنك تجد أن الأمر غير ذلك في ميدان العمل الثقافي والأكاديمي... ولا نريد هنا أن نتحمل خطيئة الإشارة إلى أنك تعرف خلقاً كثيراً قد تبوؤا المنزلة وتقاضوا الأجر على ما يضر في العمل الثقافي والأكاديمي... ولا نريد أن نضع في الرقبة خطيئة الإشارة إلى أنك تعرف خلقاً كثيراً قد تسلقوا بلا إعداد وبلا خبرة وبلا تخصص وتدافعوا بالمناكب وبالأكتاف ودفعوا أهل الخبرة والنباهة والاختصاص وجلسوا مكانهم في العمل الثقافي والأكاديمي... ولا نريد أغاضة أحد بالإشارة إلى إنك تعرف خلقاً كثيرة قد بلغوا الحد الأعلى من امتيازات العمل الثقافي والأكاديمي وهم دون بلوغ الحد الأدنى من الإنتاج فيه.

إنك - حتماً - لا تريد أن تضع في رقبتك خطيئة إحراج موقف أحد من الذين ساقتهم الظروف مهنة التكسب بالتدافع الدجلي في الساحة الثقافية الأكاديمية... لكنك تتصدى لأمر إلقاء ملاحظات على سبيل المدخل

إلى مبادئ اقتصاد ثقافي يجب أن يؤكد أول ما يؤكد ضرورة التخصص والقدرة على الإتقان في العمل وتطويره بالإبداع الذي نؤكد أنه لا يكون بالتدافع ولا بالسقوط في آبار الباطل.

إن من حق الناشر بل من واجبه إزاء نفسه وإزاء الثقافة والمثقفين أن يربح... وإلا فكيف يستمر في العمل.

إن من حق الناشر بل من واجبه إزاء نفسه وإزاء الثقافة والمثقفين أن يأخذ بيد أصدقائه في دروب النشر... وإلا فمن للصديق الواعد غير الصديق الناشر.

إن من حق الناشر أن يتمذهب وأن يرفض مالا يتداخل منسجماً في أمشاج مذهبه... وإلا فكيف تشاد مدارس الثقافة وتتوطد فيها المذاهب؟

لكن ليس من حق الحداد أن يتمسلق متسرباً إلى سوق الصاغة ليبخس ثمن الذهب.

هذا ونلاحظ أن ناشراً ثقافياً قد يرفض نشر نص من الدرجة الأولى ليعطي الصدارة في الموضوع نفسه لنص من الدرجة العاشرة... أو إنه يزوي نصاً بارعاً في مكان هامشي في المنشور ليبرز نصاً خائباً في الموضوع نفسه لا لسبب إلا لقلة خبرة الناشر الذي كلما عرضت عليه الدر طلب منك الفحم الذي إن لم يجده عندك التمسه عند غيرك.

الحب الأولمبي:

سأل سائل الفيلسوف والرياضي فيثاغوراس: ما صنعتك؟ قال: الفلسفة وإني فيلسوف... فقال السائل: وما هذا؟ فأجاب فيثاغوراس: إنه حب الحكمة وإني محب للحكمة... فقال السائل: وهل من أحد لا يحب الحكمة؟ فقال: فيثاغوراس: أجل خلق كثير يتاجرون بها ويتكسبون ويحبون منها الفوائد والعائدات... لكن الفيلسوف يحب الحكمة حباً أولمبياً بريء من التطلع إلى النفع الذي ينشده اللاعبون والمراهنون وأولئك الذين يحضرون لأغراض التجار: إنه حب الأولمبياد خالصاً للأولمبياد.

الحيازة الملكية والحيازة الإبداعية

والحيازة حيازتان: حيازة ملكية، وحيازة إبداعية، أما الملكية فإنها مادية تتصف بالشيئية ومتناهية لها حد لا تمتد وراءه وأمد لا تستمر بعده... وإنها تفنى بمعنى إنها تنفذ عند حد بعد أمد بانتقال حقوق التملك إلى آخرين بالبيع أو الهبة أو الميراث أو باغتصاب حقوق التملك بالسلب والنهب والمصادرة وسائر ضروب الاستيلاء كالاستحواذ أو بالتدهور والتلاشي بفعل سوء التصرف وسوء الإدارة وبفعل التعرية جراء الاستعمال والاستهلاك ومرور الزمن... وإنها قابلة للخزن والمراباة والاحتكار وكل ضروب المتاجرة.

أما الحيازة الابداعية، فإنها معنوية لا تتصف بشيء مما يجوز على الأشياء من ضروب التناهي في الحد والأمد... وإنها لا تفنى بأي من أسباب النفاذ ولا يزيدها الاستهلاك والاستعمال ومرور الزمن وجميع ضروب الانتقال إلى آخرين إلا ثباتاً ورسوخاً وتكاثراً... وإنها غير قابلة للخزن والاحتكار والمراباة والمتاجرة.

وإذا شئت أن تقرب هذا إلى المدارك وتدنيه إلى الفهم فقل إن امبراطورية الاسكندر حيازة ملكية انتهت عند حد بعد أمد وأن فلسفة أرسطو حيازة إبداعية لم تقف عند حد ولا نهاية لها بعد أمد.

والحيازة الإبداعية عقلية معنوية معقولة متخيلة متصورة وكلما زاد المقسوم عليه فيها زاد حاصل القسمة.

أما الحيازة الملكية فإنها مادية ملموسة محسوسة تتصف بجميع صفات الشيئية وكلما زاد المقسوم عليه فيها قل حاصل القسمة.

ومثال ذلك كلما كثر الأرسطيون زادت القسمة الأرسطية وزادت حصة كل من المشاركين في هذه الفلسفة... هذا من جهة زيادة حاصل القسمة كلما زاد المقسوم عليه في الحيازة الإبداعية... أما من جهة قلة حاصل القسمة كلما زاد المقسوم عليه في الحيازة الملكية فإنه كلما كثر الخلفاء المالكون لإمبراطورية الاسكندر صغرت هذه الامبراطورية وقلت حصة كل من الخلفاء فيها بعد القسمة.

الثقافة حيازة إبداعية وكل ما في العلم وفي الأدب وفي الفن وخلف لأولادك السبعة سبع قارات وخلف فيهم كلمة طيبة.

إن الكلمة الطيبة ثقافة تتصف بكل صفات الحيازة الإبداعية... أما القارات السبع فإنها أشياء تتصف بكل صفات الحيازة الملكية.

وكلما كثر الوارثون المشاركون في الكلمة الطيبة ازدهرت الكلمة وزادت حصة كل من الوارثين.

وليس المرء بما يمتلك أو بما يتصف من صفات الحيازة الملكية، ليس المرء بطوله ولا بعرضه ولا بوزنه ولا باشتداد عظمه ولا بلونه ولا بملابسه أو بيته أو قصوره أو قاراته أو - هب، افترض، إنه امتلك ألف منظومة شمسية - بمنظوماته الشمسية... إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه: إنه بالكلمة الجميلة الصائبة... إنه بالحكمة، إنه بالثقافة، إنه بالقدرة على العطاء، إنه بالخالد الذي لا يفنى، إنه بالكلمة الجميلة الطيبة، إنه بما يظهر بالكلمة الطيبة على اللسان من نقاء وصفاء وإبداع قلب، إنه بالحيازة الإبداعية.

وبعد، فهل ترى إنك قد تجاوزت حدود الفلسفة إلى بداية تخوم المواعظ؟

ظن ما شئت، أو قل ما تشاء، تظل الحيازة الملكية أخذاً، وتظل الإبداعية عطاء، ويظل المبدعون دائميين في جميع دفاتر الثقافة والحضارة والتاريخ، ويظل لهم في رقاب المالكين دين أبته الأرض وحمله المالكون

أهل المعامل والمصانع والعمارات والبساتين والحقول والممتلكات: يبذخون ويخطئون ويظلمون بجوع وعري المبدعين.

وقد أكل الناس وشبعوا واتخموا ولبسوا واكتسوا وبذخوا: بجوع وعري الفراهيدي والفراهيدي رابض في عرين الإبداع يعطي من أصغريه - قلبه ولسانه - ميكانيك وديناميك اللغة كلها ولا يأخذ من دنيا المالكين.

هذا وإنك - حتماً - تعرف اسم الطبيب الذي وصف لك البنسلين وزرقه لك أو تكبر على الزرق، لكنك قد لا تعرف اسم مكتشف البنسلين.

إن مكتشف البنسلين هذا فراهيدي آخر.

الفتح والإبداع والفراهدة:

والفتح أنواع:

منه أن تفتح الأبواب والشبابيك والخزائن والصناديق.

ومنه أن تفتح الجريدة أو المجلة أو الكتاب.

ومنه أن تفتح علبة السكاير أو قنينة شامبين.

ومنه أن تفتح من المعلبات ما طاب لك وقدرت عليه من المأكل والمشرب.

ومنه أن تفتح حساباً لرصيد في المصرف.

ومنه أن تفتح باباً لمناقشة وحديث مع آخرين.

ومنه أن تفتح قطراً أو أقطاراً من أقطار هذه الأرض.

ومنه أن تفتح الأبواب والشبابيك والخزائن والصناديق والجرائد والكتب والمجلات وأنواع علب السجاير أو السيجار وأنواع الشامبين والبورت والفيرموث والويسكي والبراندي وأنواع المعلبات وحسابات الأرصدة في المصارف وأبواباً لمناقشات وأحاديث ومجادلات.

ومنه الفتح الذي يجوز تسميةً على حل الأزار والأزرار وشق الترع والطرقات.

لكن هذه الفتوحات والمفتوحات تتصف بما يجوز على الحيازة الملكية... وذلك لأن كل هذه المفتوحات مادية حسية ملموسة محسوسة متناهية عند حد ولها أمد وإنها قابلة للاحتكار والمتاجرة وإنها كلما زاد المقسوم عليه فيها قل حاصل القسمة وقلت حصة المشارك في الملكية... أضف إلى ذلك إنها تنفذ بالاستعمال وبالاستهلاك وبانتقال الملكية غصباً وبيعاً وتوريثاً.

وهذه فتوحات لم تنجم منها قيمة فراهيدية كالقيمة الناجمة عن فتوح فراهدة لم تتصف فتوحاتهم بأي من صفات الحيازة الملكية واستبد بقيمة حيازتهم الإبداعية مالكون اكتسوا وشبعوا واتخموا وبذخوا وظلموا وأخطأوا وعاثوا في الأرض تبختراً واختيالاً بجوع وعري وصواب وعدل وتواضع الفراهدة الرابضين في عرين العطاء الخالد.

فنحن الآن بشأن السلة لا العنب الذي نعتقد أنه من اختصاص الاقتصاد الاقتصادي لا الثقافي الذي يسألك أن تقيم قيمة عمل الفلاسفة والأدباء والعلماء في الحيازة الإبداعية.

لا بل، اسأل نفسك على سبيل الإشارة والتهيئة لمواجهة قضايا وقل:

- كم تبلغ قيمة قانون الجذب العام بالاسترليني أو بالروبل أو بالدولار.
- وما قيمة العمل المنتج للتلقيح ضد الجدري والسل والطاعون.
- كم تبلغ قيمة شريعة حمورابي ونحو سيبويه ومسرحيات شكسبير.
- كم تبلغ قيمة قوانين الضغط بالاسترليني.
- وكم تبلغ قيمة اكتشاف التطعيم ضد السرطان - إذا تم إنجازه - بالدولار.

المالكون والحيازة الملكية

المكون والحيازة الملكية:

ومن صفات المالك المكتسبة داخل دائرة الحيازة الملكية إنه:

1. يهتم بالأشياء ويجد في امتلاكها ويطلب لها الزيادة والصيانة بكل الأسباب التي منها:

- التغير في الاستهلاك بقصد زيادة الدخل على الخرج والتوفير والادخار ما استطاع إلى هذه الزيادة سبيلا.
- الخزن والاحتكار في انتظار زيادة الطلب وقلة العرض وارتفاع السعر ليبيع متحيناً فرصة الشراء بسعر أقل ليخزن ويستتر متحيناً فرصة زيادة الطلب وحاجة المستهلكين وقلة المعروض من السلعة المحتكرة ليرفع الأسعار ويتحكم مضارباً بحاجة المحتاجين الذين قد لا تكون حاجتهم الشامبين والفستق المقشر، بل قد تكون طحين قمح للخبز يسد به جوعاً ودواراً لطريح فراش أضر به المرض وعذبته الأوجاع.
- المراباة والرهون والمقامرة.
- التنمية بالاستثمار وبتشغيل الآخرين بأجور تقل عن قيمة العمل.
- الحماية والتأمين ضد الحريق والسرقة والغرق والسلب والنهب والاغتصاب وضد الأخطار المؤدية إلى اضمحلالها أو انتقالها إلى الآخرين.

2. يعيق المالكين المالكين المنافسين له في الميدان بالمتاح له من الإعاقة والمعارضة والمنع.

3. يتصدق ضمن حدود الإلزام الديني.

4. يدفع الضرائب ضمن حدود الإلزام السياسي والتنظيم الإداري المالي.

5. يظهر البذخ والعطاء في المواسم والمناسبات الاحتفالية ضمن حدود الإلزام الاجتماعي المحكوم بعادات وطقوس وتقاليد... ويخفي العطاء الذي قد يجزله إلى الذين يسهلون أمر زيادة وازدهار ممتلكاته خارج حدود الإلزام الديني والسياسي والاجتماعي.

6. تصير الوسائل عنده غايات مقصودة لذاتها، وتنقلب لديه الغايات وسائل لتقوم بوظيفة رعاية وحماية الوسائل التي قد صارت غايات... ومثال ذلك أن الدينار الذي كان وسيلة نحو إدخال السرور على طفلك فجر يوم العيد بلعبة يفرح بها ويعيّد قد صار ملايين الدنانير وإن ابنك قد كبر ليصير وسيلة وظيفة لصيانة وتكثير الميراث غاية مقصودة بالتنمية والتكثير.

المبدعون والحيازة الإبداعية

ومن صفات المبدع المكتسبة داخل دائرة الحيازة الإبداعية إنه:

1. لا يهتم بالأشياء ولا يجِدّ في امتلاكها ولا يطلب لها الزيادة والصيانة إلا ضمن حدود مستلزمات الراحة الواجبة لتهيئة أجواء الإبداع.
2. إن كل غير الإبداع وسيلة عنده للإبداع.
3. محكوم بالعطاء: إن ازدهار المبدع محكوم بالغاية التي لا تتكامل في نظره ولا يفرح بها إلا بانتشار حيازته الإبداعية بين الناس: إنه العطاء، إنه البذخ الثقافي، إنها أفراح التطور، إنها العبقرية، إنه أفلاطون وما أفلاطون بلا انتشار؟؟ وإنه بيتهوفن وما بيتهوفن لا يسمع غير نفسه؟؟ وإنه شكسبير وما شكسبير لو احتكر إبداعه لنفسه ولعياله؟؟ بل ما شكسبير لو لم يعرفه غير الإنجليز فيتجاوز انتشاره القارة الأوربية إلى القارات الأخرى وإلى القمر في رؤى وذكريات وثقافة الرواد الذين مشوا عليه بين العينين بدراً وهلالاً وفي المحاق فوقفوا على الجبين منه بأفضال الراصدين المبدعين بطليموس وابن الهيثم وكوبرنيكوس وغاليلو وكبلر ونيوتن واينشتاين وآخرين يظل لهم دين مستحق في رقاب كل المالكين.

إن الحيازة الإبداعية قد تكون أياً من الإبداعات التالية:

- في مجال الاكتشاف:

1. عقار إبادة: ومنه مصل التطعيم والتلقيح ضد الأمراض ومضادات الحيويات والمعقمات قاتلات الجراثيم ومبيدات الديدان والحشرات.
2. عقار تسكين: ومنه كل أنواع المهدئات ومواد التخدير.

3. عقار إنعاش: ومنه الأملاح والمعادن والفيتامين وأنواع المنبهات والمنشطات.
4. نظرية رياضية: ومنه نظرية النسبية.
5. نظرية طبيعية: ومنه نظرية التطور.
6. نظرية اجتماعية: ومنه نظرية نشوء الدولة.
7. قانوناً طبيعياً: ومنه قانون الجذب العام.
8. قانوناً اقتصادياً: ومنه قانون الغلة المتناقصة.
9. قانوناً كيميائياً: ومنه تعادل طرفي معادلة التفاعل.
10. قاعدة تشريعية: ومنه أن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.
11. قاعدة لغوية: ومنه جميع قواعد النحو والصرف والبلاغة والعروض.
12. اكتشافاً كيميائياً ومنه اكتشاف الأوكسجين.
13. اكتشافاً بايولوجياً: ومنه اكتشاف الدورة الدموية.
14. اكتشافاً باثولوجياً: ومنه اكتشاف الميكروبات.
15. اكتشافاً جغرافياً: ومنه اكتشاف رأس الرجاء الصالح.
16. اكتشافاً فلكياً: ومنه اكتشاف حركة كلف الشمس.
17. اكتشافاً للقوى ومصادر الطاقة: ومنه البخار والكهرباء والنفط ومساقط الماء.

- في مجال الاختراع:

1. آلة القياس: ومنه الثرمومتر والبارومتر وجميع الموازين وأدوات القياس.
2. آلة تكبير وتقريب: ومنه المكرسكوب والتلسكوب.
3. آلة تصوير وتصغير وتكبير وتبعيد وتقريب: ومنه كاميرات التصوير.
4. مزيدات السرعة: ومنه الدراجة والسيارة والباخرة والقطار والطائرة.
5. مقللات السرعة: ومنه أجراء التصوير البطيء.
6. ناقلات الصوت: ومنه التلفون والراديو والإذاعة.

7. ناقلات الصورة: ومنه التلفزيون.
8. حافظات الصوت: ومنه اسطوانات وأشرطة.
9. حافظات الصور: ومنه الفيديوتيب.
10. مكيفات الحرارة: ومنه أجهزة التبريد والتسخين.
11. مقويات الرفع والسحب والدفع والطرق: ومنه الرافعات والساحبات والكاسحات والمطارق.
12. مبددات الظلام: ومنه المصابيح.
13. مولدات الطاقة: ومنه الدينمو والبطارية.
14. مساعدات الأنامل: ومنه الآلات الكاتبة ومكائن الطباعة ومكائن الخياطة وكل المثاقب والماسكات وكل الحفارات التي منها مثلاً الحارثات وكل القاطعات التي منها مثلاً الحاصدات وكل المغازل وآلات النسيج.
15. مساعدات الجوارح والأعضاء: ومنه العوينات والكلية الاصطناعية.
16. مساعدات الجلد: ومنه كل ما يرتدي الإنسان من جميع أنواع الكساء جلداً وصوفاً وشعراً ووبراً وقطناً وكتاناً ومن كل الألياف الصالحة للرداء: طبيعية مصنعة واصطناعية مصنوعة.
17. الحاسبات والعدادات: ومنه آلة قياس استهلاك الماء والغاز والكهرباء وكل الحاسبات الالكترونية... وكلها داخلة جوهراً وأساساً في (آلة القياس) كما يدخل في هذا كل المنظمات الأوتوماتيكية.

- في مجال الإنشاء الفني:

1. الرسم: ومنه العشاء الرباني الأخير.
2. النحت: ومنه أسد بابل والثور المجنح.
3. العمران: ومنه أهرام مصر.
4. الموسيقى: ومنه مؤلفات بيتهوفن.
5. الملاحم: ومنه ملحمة كلكامش.

6. المسرحية: ومنه مسرحيات شكسبير.
7. القصص: ومنه ألف ليلة وليلة.
8. الرواية: ومنه روبنسن كروزو.
9. القصائد: ومنه ديوان الأعشى.
10. الرقص: ومنه الخطوة الأساس لرقصة الفالس: الخطوة المولدة لجميع تنقلات حركة المشي في الرقص - إقبالاً وإدبارا واستدارة ودوراناً -.
11. التأنق في المأكل والملبس والمسكن وأنماط السلوك، ومنه فن الطبخ وآداب المائدة وتصميم الأزياء وتركيب العطور وقواعد التطيب بها وفن التنسيق والديكور... ومنه آداب القيام والمشي والجلوس والزيارة والحديث والإصغاء والمناقشة والقراءة والكتابة والدرس والنوم وحسن المعاشرة وحسن معاملة الناس أقربين وبعيدين... ومنه فن الإدارة وفن الإقناع... ومنه آداب كل ما له آداب من أنماط السلوك.
12. الرياضة البدنية: ومنه قواعد وطقوس الألعاب الأولمبية.

الاكتشاف والاختراع والإنشاء الفني:

وقد يبدو لك أن الازدهار التطوري لا يتكامل إلا على هذا النحو من التسلسل:

ازدهار في الاكتشاف والاستكشاف يليه ازدهار في الاختراع فيليه ازدهار في الإنشاء الفني... وهذا صحيح... لكنك قد ترى من زاوية نظر أخرى أن تسلسل البناء التطوري يجب أن يجري على هذا النحو من التعاقب.

ازدهار في الاختراع يليه ازدهار في الاكتشاف والاستكشاف فيليه ازدهار في الإنشاء الفني... وهذا صحيح... لكنك قد ترى من زاوية نظر ثالثة أن تسلسل الازدهار التطوري لا يتكامل إلا على هذا النحو.

ازدهار في الإنشاء الفني يليه ازدهار في الاكتشاف والاستكشاف فيليه ازدهار في الاختراع... وهذا صحيح.

هذا وإنك قد ترى أن ازدهار الإنشاء الفني شرط لا بد منه لازدهار الاكتشاف والاستكشاف مقيماً هذه الرؤية على صحة وصواب طرفي المعادلة: (الازدهار التاريخي = ازدهار الإنشاء الأدبي = بدائية)... ولا اكتشاف في البداية.

أو إنك قد ترى أن الاكتشاف والاستكشاف شرط لا بد منه لازدهار الإنشاء الفني مقيماً هذه الرؤية على صحة وصواب طرفي المعادلة: الازدهار التاريخي = ازدهار الاكتشاف بدائية) ولا ازدهار لإنشاء فني في البدائية.

أو إنك قد تختصر المسألة على نحو آخر فترضى بقولك: إن الازدهار لا يتكامل إلا بتكامل ازدهار الاكتشاف والاختراع والإنشاء الفني ازدهاراً متساوقاً في التداخل الذي لا يختلف فيه ازدهار عن ازدهار.

وحدة الازدهار الثقافي:

- لا يزدهر الإنشاء الفني إلا على قدر ازدهار الاختراع.
- لا يزدهر الاختراع إلا على قدر ازدهار الاكتشاف.
- لا يزدهر الاكتشاف إلا على قدر ازدهار الإنشاء الفني.

التفاعل السببي:

إن الاكتشاف يستدعي الاختراع: ومثال ذلك أن اكتشاف قوة البخار استدعى اختراع المحرك الذي منه محرك السيارة والباخرة والطائرة.

إن الحاجة إلى تحريك غير حيواني (كالخيول تجر العربات) وغير إنساني (كالملاح للتجذيف) وغير طبيعي (كالرياح لدفع الِأشرعة وإدارة الطواحين) استدعت اكتشاف قوة البخار... أو - قل إن شئت - توظيف هذه القوة.

إن اكتشاف قوة البخار واختراع المحرك الآلي استدعيا معاً اكتشاف مصادر لتوليد الطاقة اكتشافاً يساوق التقدم لتنامي التطور والتفنن في تطوير اختراع المحرك الآلي الذي استدعى بالتآلف مع الإنشاء الفني اختراع السيارة التي يجب أن ترجع بها إلى اكتشاف العجلة واختراع العربة... والباخرة التي يجب أن ترجع بها إلى اكتشاف قواعد الطوفان في الماء واختراع المجاذيف والأشرعة... والطائرة التي يجب أن ترجع بها إلى اكتشاف قوى الجذب والانتباذ واختراع الأجنحة.

وبعد فمن هذا الذي تنبأ مرة فقال:

سيجيء يوم تسير فيه العربات بلا خيول والسفن بلا أشرعة ومجاذيف... بل ويطير الإنسان بلا أجنحة.

إنه روجر بيكون... وليست نبوءته هذه إلا إنشاءً فنياً ممهداً به السبيل إلى الاكتشاف والاختراع: الإنشاء الذي منه الحلم الإنساني الهاجع في أساطير كان فيها للإنسان من تصوراته الإنشائية تخطياً لقوى وقوانين الطبيعة ولقدرات الإنسان.

النداء:

لماذا لا تقف فوق بناية الأمم المتحدة وتؤذن في سكان هذي الأرض أذان القيام، فإقامة مهرجان الفرح الأكبر بالعربة الآشورية وبالثور المجنح؟

لماذا لا تفعل هذا فيتفق معك سكان هذي الأرض على تلخيص الحيازة الإبداعية في الرمز التالي على النحو التالي:

أولاً: الاكتشاف في العجلة.

ثانياً: الاختراع في العربة واستعمال العجلة.

ثالثاً: الإنشاء الفني في الثور المجنح.

تثبيت مصطلح:

1. الحيازة الإبداعية = الاكتشاف + الاختراع + الإنشاء الفني.
2. الثقافة = الاكتشاف + الاختراع + الإنشاء الفني.
3. الحيازة الإبداعية = الثقافة = العلم = الفن = الأدب.

لا يكون الازدهار إلى على قدر سيطرة الإنسان على الطبيعة وتفوقه عليها بما في هذه الطبيعة طبيعة الإنسان... لكن هذا غير ممكن إلا:

أولاً : بانحسار المجهول أمام مد المعلوم بالاكتشاف.

ثانياً : بخلق بدائل تحاكي وظائف وظواهر الطبيعة بالاختراع.

ثالثاً : بالتصور الجمالي وإعادة الانسجام والعدل إلى أحوال وعلاقات الإنسان نحو المريح الأجمل بالإنشاء الفني.

وهذا لا يعني إلا أن التطور والتقدم والارتقاء أمور غير ممكنة إلا بالثقافة وإبداع الفراهدة.

عودة إلى السؤال:

- كم يبلغ قيمة إبداع فراهدة الاكتشاف بالدولار؟
- كم تبلغ قيمة إبداع فراهدة الاختراع بالاسترليني؟
- كم تبلغ قيمة إبداع فراهدة الإنشاء الفني بالروبل؟
- كم يبلغ مجمل قيمة إبداع الفراهدة في التاريخ إذا علمت:

أولاً : إن ازدهار الحيازة الملكية لا يكون إلا على قدر ازدهار العمل في الزراعة وفي الصناعة وفي العمارة وفي التعدين وفي التدجين.

ثانياً : إن ازدهار العمل في الزراعة وفي الصناعة وفي العمارة لا يكون إلا على قدر ازدهار التكنولوجيا.

ثالثاً : ازدهار التكنولوجيا لا يكون إلا على قدر إبداع الفراهدة في الثقافة: اكتشافاً واختراعاً وإنشاءً فنياً.

تلخيص:

■ التاريخ إبداع الفراهدة = بداية ما قبل التاريخ.

■ بداية التاريخ + إبداع الفراهدة تؤدي إلى (تكنولوجيا + ازدهار في الزراعة والصناعة والعمارة والتعدين والتدجين) تؤدي إلى ازدهار أرباح التاجر بالسلع بين المنتج والمستهلك والوسطاء.

■ قسمة إبداع الفراهدة = مجمل قيمة السلعة - كلفة الإنتاج: محتفظين عند هذا الحد من المطارحة... وذلك لأنك لست هنا من أمر دخول تفاصيل التطبيق بشيء... إنما انت هنا بالمبدأ العام الذي لا يختلف بشأنه متجادلان مهما تعقدت أساليب العناد والمكابرة.

المبدأ:

هناك حق مستحق للفقراء في كل سلعة.

التوضيح:

كم يبلغ الحق المستحق لفراهدة الطب ومنهم أبقراط وجالينوس والرازي وابن سينا وابن رشد في ريع عيادات أطباء خاملين يعلون من الريع عمارات ويوسعون من الريع حدائق ومسابح القصور ويزيدون في المصارف أرصدة النقود ولا يقدر المليار لو وقفوا واحداً فوق الآخر أن يبلغوا من ابن سينا أو ابن رشد أو ابن طفيل أو الرازي حد الكعبين؟

كم يبلغ الحق المستحق لفراهدة اكتشفوا المكروبات والجراثيم واخترعوا المجاهر وأجهزة التصوير الشعاعي وأنواع التحليل واكتشفوا عقارات الإبادة والإنعاش والتسكين في بساتين وعمارات وبيوت أطباء خاملين لم يكتشفوا مكروباً ولم يخترعوا مجهراً أو جهازاً لتشخيص لا بتصوير ولا بتحليل ولم يكتشفوا مبيداً أو منعشاً أو مسكناً مما اكتشف الفراهدة المبدعون؟

وكم تبلغ حصة الفراهدة مكتشفي العقاقير في أرباح مصانع الأدوية؟

وكم تبلغ حصة الفراهدة مكتشفي الجراثيم والميكروبات ومخترعي المجاهر وأجهزة التحليل في أرباح المختبرات؟

وكم تبلغ - اترك ألف ألف مثل وقف عند هذا المثل - حصة فراهدة الملاحم والموسيقى والمسرحيات والقصص والنحو والصرف والعروض في أرباح الناشرين؟

القاعدة:

كل من هو غير فراهيدي في الاكتشاف أو الاختراع أو الإنشاء الفني فهو ناشر يجمع في العمل بين التجميع والتوزيع... وبناء على هذا فإن التكنولوجيا والصناعة والمتاجرة بالسلع أعمال نشر لأعمال المبدعين.

شرح القاعدة في المجال الحرفي:

ما جوهر عمل المعلم والمهندس والطبيب؟ أسألت قط نفسك هذا السؤال؟ إن جوهر عمل هؤلاء - إن - يقوم على التجميع والتوزيع.

الثقافة والعمل واللعب
والعلم والفن والأدب

إن العلم والفن والأدب سابق في الوجود على اللغة، لكن الإنسان كائن يعبر عن التصور الصامت بالعمل أو باللعب أو بالعبث.

الحاشية:

لم تكن الثقافة إلا فعلاً طبيعياً قبل ظهور الوعي... ولم تكن الثقافة قبل ظهور الوعي إلا فعلاً فطرياً حياتياً ضمن أحكام الفعل الطبيعي الذي ليس فيه عبث وليس فيه لعب وليس فيه عمل، بل فعل سلوكي غير منفك عن القاعدة... وظهر الوعي وتطور فصار بعض من فعل الإنسان عبثاً وصار بعض من فعل الإنسان لعباً، ولا هو لعب بل عمل... وظهرت ثقافة عصور الوعي... إنها الثقافة التي فيها وبها عمل ينفع ولعب يمتع وعبث لا ينفع ولا يمتع.

شروح تعليمية:

صفات الفعل الحياتي إنه تماسك من الداخل في الداخل ضد الطوارئ التي تهدد الكائن الحي بأي من الأخطار التي قد تعيق نموه أو ازدهاره أو تكاثره أو ديمومته ضمن حدود الأجل.

والفعل الحياتي فعل طبيعي يتكيف ويتلاءم مع البيئة ويقاوم عوامل الهدم ويتماسك من الداخل في الداخل.

ولا وعي في الفعل الحياتي... ذلك لأن الفعل الحياتي فعل فطري طبيعي... ولا وعي في الفعل الطبيعي... ذلك لأن سلوك الطبيعة وقانونها واحد متحد لا انفصام للسلوك الطبيعي من قواعد سلوكه... ولا صراع في الأفعال الحياتية والأفعال الطبيعية بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون... ذلك لأن أحداث وظواهر الطبيعة غير منفكة عن قوانين وقواعد سلوكها ونظامها الذي هو سلوكها حين تفعل وسلوكها حين لا تفعل... ولا تريد الطبيعة غير الذي تفعله ولا تفعل غير الذي تريده، وإن الفعل والإرادة والقدرة أمر واحد متحد في الفعل الطبيعي الذي لا جمال فيه ولا قبح ولا طاعة ولا عصيان ولا فضيلة ولا رذيلة ولا خطأ ولا صواب ولا أياً من الأحوال غير حال التوحد والاتحاد الغريزي الفطري الطبيعي بين القوانين والسلوك.

وهناك لعب... ولا لعب في الطبيعة... إنها لا تلعب.

وهناك العبث ولا عبث في الطبيعة... إنها لا تعبث.

وهناك العمل ولا عمل في الطبيعة... إنها لا تعمل.

ذلك لأن الطبيعة لا تعمل ولا تعبث ولا تلعب.

ولا بطالة في الطبيعة لمقابلة العمل... ذلك لأنها لا تعمل.

ولا جد في الطبيعة لمقابلة اللعب... ذلك لأنها لا تلعب.

ولا عبث في الطبيعة... ذلك لأن نظامها وسلوكها واحد متحد ولا خروج لظواهرها وأحداثها على القانون الطبيعي وفعل الطبيعة المستمر الدائم بلا انفكاك فعلاً للكشف به وفيه عن نظامها، فلا هي غيره ولا هو غيرها ولا غير الفعل الغريزي الفطري الطبيعي المحتوم... وتكيفت الذرات محكومة العدد الذري وتكونت العناصر وتكيفت محكومة بالألفة الكيميائية فتكونت المركبات..

وتكيفت المعادن بالتوزيع الجغرافي شأنها في هذا شأن الحيوان والنبات، وتكيفت بالألفة الكيميائية.

وكان أن صارت الثقافة إنشاءً قائماً على إنشاء المعلومات اكتساباً منذ لحظة بداية الوعي فلم يعد بعد هذه اللحظة سلوك الإنسان جزءاً لا يتجزأ من فعل الطبيعة.

وبوعيه لها ثقافة فكانت له من هذه الثقافة قوة مجابهة تحدى بها الطبيعة.

وتفاوت الناس في التدريب وحظهم منه... وتفاوت الناس بالخبرة القائمة على حظهم من التدريب... وتفاوتوا بالمعلومات وتفاوتوا بالمعرفة وتفاوتوا بالثقافة.

وصارت الثقافة قيمة سلعية... إنها لم تعد جزءاً لا يتجزأ من العمل الحياتي الذي يتساوى فيه كل الأحياء.

وصارت عند بعض الناس خبرات ومعلومات وثقافة... إنها الحيازة الإبداعية وإنها البضاعة الثقافية التي تكبر وتكثر.

هناك إذن بضاعة سلعية... وبضاعة نقدية... وبضاعة ثقافية... وهناك الإنسان الذي يلعب ويعبث ويعمل.

ولم تكن للثقافة قيمة سلعية قبل بداية الوعي... ولم تكن للأشياء قيمة تبادلية قبل بداية هذه المرحلة.

الثقافة إنها - أضف إلى كل ما عندك من آلاف التعريفات - خبرة ومهارة للإمتاع وللفائدة بالعلم وبالأدب وبالفن.

أما التطور فإنه كامن في تطوير الخبرات والمهارات لإنشاء ثقافة متطورة نحو الإبداع بالفن والإفادة بالعلم... ونحو الإبداع والإفادة بالعلم وبالفن وبكل فروع المعرفة التي هي الثقافة... أجل فلا إمتاع بلا إفادة... ولا إفادة بلا إمتاع... ولا علم بلا فن... ولا فن بلا علم... ولا علم ولا فن بلا الثقافة كلها بكل فروع وأنواع المعرفة.

ومن تعريفات الثقافة إنها الوعي... إنها وعي الخبرة... إنها وعي قدرة الخبرة على الإفادة والإبداع.

وأقل الثقافة نصيحة... إن كل كتاب الجمهورية لأفلاطون محض نصيحة، وإلا فلماذا نسمي الكتاب إذا شئت تكثيفاً للمعاني بأقل الكلام.

إن كل كتب الدنيا نصيحة... أم إن عندك اعتراضاً على هذا التعريف؟

- والإمتاع لعب ومن اللعب باللعب إلى اللعب.
- والإفادة عمل ومن العمل بالعمل إلى العمل.
- ومن اللعب أن ترقص.
- ومن العمل أن تحصد.
- وهناك العبث الذي لا هو رقص ولا هو حصاد ولا هو فعل طبيعي حياتي ضمن حدود فعل الطبيعة.

كان كل نشاط الإنسان فعلاً طبيعياً قبل بداية الوعي.

أدنى حالات التدهور الجمالي المتاجرة بالفعل الطبيعي.

ومن العمل أن تحصد... ومن اللعب أن ترقص... ومن الثقافة أن تحصد وأن ترقص وأن تحب.

والحاسم - عد إلى الحاشية.

كان كل نشاط الإنسان فعلاً من أفعال الطبيعة قبل ظهور الوعي الذي هو الثقافة التي منها اللعب رقصاً ومنها العمل حصاداً ومن العبث أن تكتب كتاباً لا جديد فيه... ومن العبث أن تمنع كتاباً وكله جديد.

هل تشكو من أنك تكتب والآخرون يرون اسمك في الجريدة فيقلبون الصفحة ولا يقرأون؟؟ ولا تكابر فكلنا قد تشكى من هذا وشكى وأقام الدنيا وأقعدها ذاماً للزمن والحظ والآخرين... لكن الناس لا يقرأون إلا الثقافة القادرة على اقتلاعهم من موقع وزرعهم في موقع جديد أفضل من الذي كانوا فيه.

إن القارئ لا يدفع من الوقت والمال والاهتمام إلا على قدر اللعب

الممتع أو الفعل النافع في النص... ذلك لأن بداية الدفع في تاريخ الوعي والثقافة بدأت باستئجار الخبرة القادرة على اقتلاع دافعي الأجر من موقع وزرعهم في موقع أفضل وأكثر فائدة وإمتاعاً.

إنها طبائع الثقافة التي لا مبدل لها إلا بتبديل طبائع هذا الكون التي لم تتبدل بعد... ولا نتمنى لها تبدلاً فإنها طبيعتنا والطبع أغلى من التطبع وأعز وأوفى.

إعادة إعلان سقوط
الفلكلور الفلسفي

أخذ (نيقولا كوبر نيكوس) بمبدأ البساطة: ذاهباً مذهب الذين رأوا أن الطبيعة تعتمد في سلوكها أبسط الوسائل نحو استكمال الغايات... وهذا يعني إن الطبيعة محكومة بالبساطة ضد التعقيد وبالانسجام ضد الفوضى وبالتعاون ضد التغالب وبالطاعة ضد العصيان وبالغاية ضد العبث وبالسببية المبررة ضد المصادفة وبالسرعة ضد البطء، مثلما هي محكومة بالحركة ضد السكون وبالملء ضد الفراغ وباللا متناهي ضد المحدود.

وأقام (كوبرنيكوس) انطلاقاً من مبدأ البساطة هذا واعتماداً عليه تصوراً كونياً أساسه افتراض سكون أكبر أجرام الكون الفلكي، وافتراض حركة كل الأجرام حوله في المنظومة الفلكية: محدثاً بهذا الافتراض تحولاً خطيراً في المنهج وفي علم الفلك نحو تصور بسيط نهض بعلم الفلك نحو مستوى العلم الصحيح من عند حد تحرير هذا العلم من النتائج الخاطئة القائمة على تصور سكون الأرض ودوران الأجرام حولها في المنظومة الفلكية... وهو التصور البطليموسي الذي ظل سائداً من القرن الثاني حتى مجيء (كوبرنيكوس) إلى موقع قيادي انقلابي في منطق التصور والطبيعة والفكر: نقضاً وإبراماً أعلى - بما نقض وبما أبرم - شأن الفلسفة، وشأن المنهج، وشأن العلم، وشأن الإنسان الذي لا يستطيع - في نظر (كوبرنيكوس) - حين يدرك بالإحساس حركة جرم متحرك في الفضاء الفلكي أن يعرف أيهما المتحرك: أهو الحاس الباصر؟ أم الجرم المحسوس المبصر؟ ذلك لأنك حين ترصد من على هذي الأرض جرماً

فلكياً لتلاحظه بالحس متحركاً، فإن هذا الإدراك الحسي لا يفيدك يقيناً راجحاً في الصواب على يقين آخر من أحوال الأوضاع النسبية التالية:

1. هل إن الأرض متحركة والجرم ثابت؟
2. هل إن الجرم ثابت والأرض متحركة؟
3. هل إن كليهما متحرك؟
4. هل إنهما يتحركان بسرعة واحدة وباتجاه واحد؟
5. هل إنهما يتحركان بسرعة واحدة؟
6. هل إنهما يتحركان بسرعة مختلفة وباتجاه واحد؟
7. هل إنهما يتحركان بسرعة مختلفة وباتجاهين مختلفين؟

ما لم تفترض حركة الأرض مع الأجرام الأخرى حول أكبر الأجرام في المنظومة الشمسية الذي هو - طبعاً - الشمس..

وهذا ضرورة افتراض حركة الأرض رأي كان قد مهد له (أوسطخرس الفيثاغوري) و(شيشرون)... لكن (كوبرنيكوس) قد أخذ به - إضافة إلى توظيفه في إصلاح النظام الفلكي البطليموسي - أساساً في صلب النظرية النسبية التي ظل (كوبرنيكوس) منطلقاً أساساً لتطورها عبر (نيوتن) إلى (أينشتين) في العصور الحديثة.

وجاء كبلر (1571-160) مؤيداً لوجهة نظر دافينشي بضرورة اعتماد المنهج الرياضي في كل العلوم مؤكداً على أن التعبير بصيغة العلاقات والنسب الكمية أعلى مراحل اليقين، وذلك لأن العقل لا يطمئن باليقين التام إلا للصيغة الكمية الرياضية. وتبنى (كبلر) إضافة إلى منهج دافينشي نظرية كوبرنيكوس الفلكية وتصوره القائم على البساطة والنسبية وأخذ بدحضه للتصور البطليموسي القائم على مركزية الأرض والكرات المتداخلة، وبإثباته لمركزية الشمس والقول بالأفلاك المتخارجة.

وجاء غاليلو (1564-1642) حاسماً في مقدمة للصف الأول ورصد القمر ودياناً وجبالاً ورصد أقمار المشتري وصاغ قانون حركتها ورصد

حركة كلف الشمس: مقيماً برصد هذه الحركة الدليل الحاسم على أن العالم العلوي، مثل العالم السفلي، عالم كون وفساد وتغير وصيرورة وتبدل... وإنه عالم امتداد ممتد يتحرك... وذهب غاليلو إلى أن العلم استقراء واستدلال: الاستقراء سبيل اكتشاف الحقائق والاستدلال سبيل تنظيم المعرفة... هذا من جهة المنهج... أما من جهة الإنجاز، فقد أكد غاليلو أن الحركة ذاتية في المادة، وإن المادة متحركة بقوة طبيعية... وصرف هذه القاعدة إلى الكون كله غير مبق للعقول المفارقة وظيفة لا تحت القمر ولا فوقه.

وعزف غاليلو عن تفسيرات أرسطو الكيفية بتعاقب الصور، مثبتاً بالتجريب أن التغير في كيفيات الأشياء ليس إلا نتيجة لتغيرات في كميتها: رافضاً بهذا فكرة الجواهر والأعراض وتعاقب الصور على المادة... فالمادة، حينئذ، لا تتغير بفعل أخذ صورة ما، بل إنها تأخذ صورة ما نتيجة لتغير كمي في المادة يتعلق أول ما يتعلق بتغير نسب وعلاقات مكونات الوجود موضوع الحركة والتفاعل.

وللأجسام عند غاليلو - مستبقاً جون لوك والمدارس التجريبية بشأن دحض فكرة الجوهر الأرسطية - صفات أولية تخص الجسم ضرورة بما هو جسم، فهي التي تحقق الجسمية له وفيه، وهي الشكل والكتلة والحركة، وصفات ثانوية لا تخص الجسم ضرورة بما هو جسم، وذلك لأنها لا تتعدى - في حقيقة أمرها - حدود انفعالنا بتأثيرها وهي: الضوء واللون والصوت والطعم والرائحة والحرارة.

وكل هذا الذي جاء به غاليلو حاسم لا يقل عن حسمه لمسألة الحركة والسكون بقانون قوة استمرار الحركة منطلقاً من تجاريبه المثيرة من على قمة برج بيزا إلى استكمال كل شروط البحث المختبري لتأكيد أن السكون طارئ وأن الحركة هي الأصل بقوة استمرارية الحركة.

والآن أليس لنا - والأمر من أوجب الواجبات علينا - إعادة إعلان

سقوط ما يلي على النحو التالي فولكلوراً فلسفياً لا يستأهل منا وقفة في درس فلسفي جاد:

1. سقوط مجمل الفلسفة الأرسطية في الفيزياء والكيمياء والبايولوجي عند حد الحسم الغاليلي لقضايا التغير ومسائل الحركة.. هذا إضافة إلى حسم لافوازيه وظهور المعادلة الكيميائية بصيغة كمية رياضية للتعبير عن التفاعل الكيميائي.
2. سقوط مجمل النظر الفلسفي القائم على تقسيم العالم إلى علوي وسفلي عند حد الحسم الغاليلي القائم على رصد حركة العالم العلوي رصداً تجريبياً بالتلسكوب.
3. سقوط مجمل النظر الفلسفي القائم على معطيات التصور البطليموسي لصورة هذا الكون عند حد قيام التصور الكوبرنيكي تصوراً فلكياً مصدقاً عصراً بعد عصر تصديقاً مساوقاً لتطوير صناعة التلسكوب.

هذا ولسنا بالشاقين هنا على أحد من الملأ الفلسفي بأمر معجز لهم في الدرس... بل ولا نحن بالشاهدين لهم إلا بالفضل... إنما المسألة مسألة مقتضيات تربية ومستلزمات منهج... وإذا كانت الفلسفة عند بعضهم نظرية تربوية في مفهومها العام ونظرية في المعرفة وطريقة في المنهج عند آخرين ومحاولة تبديل العالم من حسن إلى أحسن من عند حد معطيات العلم عند غيرهم ومعرفة المعلولات بالعلل والعلة بالمعلول عند جميعهم... فكل هذا يحل مقتضيات التربية ومستلزمات المنهج محل صدارة في الدرس الفلسفي الذي يجب - لا بد من هذا الوجوب - أن لا يتدهور ساقطاً في آبار تلقين الأخطاء العلمية على إنها حقائق فلسفية أو على إنها الدرس.

والشيء الذي منه أن أفلاطون لم يدافع عن سقراط بل إنه كان قد استعمله كما نستعمل أدوات الحلاقة واستخدمه كما يستخدم غني كل فقير... وكان أفلاطون من علية القوم ومن سراتهم ولم يكن سقراط إلا واحداً من الأوباش المنسحقين المستضعفين

لا بل أنه لم يكن لو لم يعل أفلاطون قدره ويرفع منزلته إلا واعظاً

محافظاً تقليدياً راكداً منغلقاً يعادي التطور ويعادي الانفتاح ويعادي الجديد والنسبية والتجديد والشعب والديمقراطية والجمهور... ومباهج الحياة وأفراح الإنسان الناجح السعيد.

▪ وإلا فمن سقراط وما موقعه من الإعراب في الحضارة وفي الثقافة وفي الفلسفة إذا ما قسته وقارنته بالشعراء العلماء الحكماء الفلاسفة الأفذاذ المؤسسين الذين سبقوه في الزمن وفي الإبداع وفي العذاب ومنهم طاليس وانكسمانس وانكسمندريس وهيراقليطس وبارمنيدس وانكساغوراس وانبادوقليس وفيثاغوراس والخ... والخ... والآخرون وقد جاء جميعهم إلى الفلسفة من الشعر والأسطورة والحكمة والعلم الطبيعي وعلم الفلك والعلوم الصحيحة الأخرى نظرية صرفة وعملية تطبيقية والخ... والخ... والتصوف والرياضيات.

▪ ولم يأت سقراط إلى الفلسفة إلا من باب النصائح والمواعظ والإرشاد ومنطق العقل المستأنس بنفسه ضد طبع طبائع الطبيعة والإنسان والأشياء... وهذا أصح من قولنا أن سقراط من الذين تحولوا بالفلسفة وحولوا موضوعها من العلم بالطبيعة إلى العلم بالإنسان في التربية وفي علم النفس وفي الأخلاق... وأصح كذلك من قولك أن سقراط قد نادى بتحرير الفلسفة من مناهج العلم وبتحرير العلم من مناهج الفلسفة.

▪ ذلك لأنه لم يكن عالماً ليقدر فضائل تحرير العلم من مناهج الفلسفة كما إنه لم يكن فيلسوفاً آتياً إلى الفلسفة من العلم ليقدر فضائل بداية الفلسفة من عند حد انحسارها إزاء مد العلم.

▪ وبهذا لا تكون لسقراط في نظرنا فضيلة من فضائل التحول المنهجي في تاريخ الفلسفة كفضائل التحول التي صارت لديكارت بتحرير الفلسفة من مناهج اللاهوت وبتحرير اللاهوت من مناهج الفلسفة أو تلك التي صارت لفرنسيس بيكون الفصل بين الفلسفة والعلم فبداية التفلسف من عند حد الإنجاز العلمي الاستقرائي التجريبي فانحسار الفلسفة إزاء مد

العلم الأمر الذي نادى به السوفسطائيون بالدعوة إلى العمل الصالح بالعلم الصحيح، وبامتحان النظر بالتطبيق: وسيلة غير بديلة لمعرفة الصواب والحق والخير والصحيح والنافع الممتع الجميل... وإلا فما السبيل إلى تحقيق الخير بلا تحقيق أسباب النجاح؟؟ وما السبيل إلى تحقيق أسباب النجاح بغير أسباب الرأي الصائب الصحيح الذي لا سبيل إلى امتحانه إلا بالعمل فعلاً بالفعل وتطبيقاً بالتجربة وتجريباً بالتطبيق؟

■ والإنسان الفاضل هو الإنسان الخير الذي يتأمل الخير في نفسه فيجده تلك هي الفضيلة عند سقراط والسقراطيين.

■ والإنسان الفاضل هو الإنسان الناجح الذي يعمل صالحاً بالرأي الصحيح ويكسب حلالاً من العمل الشريف... تلك هي الفضيلة عند بروتاغوراس والسوفسطائيين.

■ وأسأل نفسك وحاورها عند هذا الحد من التفلسف: أي الفلسفتين أصح أخلاقاً أفلسفة تدعو إلى الفضيلة بالنجاح وإلى النجاح بالسلوك، وإلى السلوك بالعمل وإلى العمل بالعلم الصحيح؟؟ أم فلسفة تدعو إلى الفضيلة بالخير وإلى الخير بالمعرفة وإلى المعرفة بالتأمل وبالاستبطان وبالتفكير.

■ وما الأخلاق بين الفريقين - سقارطة وسوفسطائيين - إذا كان في علمك اليقين أن أسباب الشرور حاجات ليس منها الحاجة إلى معرفة خيرات النفس كما يقول سقراط والسقراطيون، بل إن أسباب الشرور لا تكون إلا بأسباب الخيبة التي لا سبيل إلى تجنبها إلا بتهيئة أسباب النجاح التي لا تكون إلا بإصلاح السلوك الذي لا يكون إلا بإصلاح العمل الذي لا يكون إلا بإصلاح العلم الذي لا سبيل إلى صحته وصوابه إلا بامتحانه فعلاً بالفعل وعملاً بالتطبيق.

■ واستحضر قواك كلها منطقية وفلسفية ومنهجية كي تظل طرفاً في هذه المحاورة الخطيرة التي ستكون حلقتها الآتية للدفاع عن مقالة

بروتاغوراس «الإنسان مقياس الأشياء جميعاً» أساساً للأخلاق عند السوفسطائيين.

■ وبعد فما الأخلاق إذا جاء يوم من أيام وقوف الفلسفة على القدمين لا على الرأس فكان السوفسطائيون أصح في نظرك منهجاً وتربية وأخلاقاً من السقارطة وأتباعهم أجمعين.

■ واصبروا ولا تلجوا فهذا حوار ثقافي خطير ومن خطورته أن النفس كانت خيرة عند سقراط ولم تكن إلا لوامة وأمارة بالسوء عند السوفسطائيين وبعدُ أَلَم أقُل لكم هذا حوار ثقافي من أخطر ما يكون الحوار الفلسفي الرصين.

الدرس الفلسفي والسوفسطائيون

▪ لا أرقى للدرس الفلسفي المنهجي في الفلسفة اليونانية باللغة العربية من كتاب يوسف كرم (تاريخ الفلسفة اليونانية) وكتاب زكي نجيب محمود (قصة الفلسفة اليونانية) حتى هذه الساعة من تاريخ الثقافة والفلسفة والتأليف... ذلك بأن هذين الكتابين رائدان ظل التأليف بعدهما عالة عليهما وعيال في هذا الباب: باب الفلسفة اليونانية باللغة العربية.

▪ ولم يكن يوسف كرم فيلسوفاً في الفلسفة... ولم يكن ناقداً في الحضارة وفي الثقافة... ولم يكن ناقداً في النظر إلى الفلسفة ولا فيلسوفاً في النظر إلى التاريخ... إنما كان مترجماً حاذقاً بارعاً يجيد النقل من اللغات الأوربية إلى اللغة العربية بمهارة تقضي منها العجب العجاب وتعترف له بالإعجاز لغة وبلاغة ودقة وبياناً حتى كأن الترجمة تأليف.

▪ وهذا كان أمر زكي نجيب محمود الذي لا يقل درجة عن يوسف كرم الذي لا يزيد عليه درجة في حسن البيان ودقة التعبير وجمال الأسلوب الفلسفي الرصين الذي يجمع بين التوثيق والإيجاز والبيان والوضوح جمعاً لم يقدر عليه أحد غيرهما في هذا الضرب من التأليف الذي يبلغ حد الإعجاز في الجمع بين دقة النقل في الترجمة وجمال الجملة في الأسلوب.

▪ ولم يلتفت يوسف كرم وزكي نجيب محمود إلى حقائق تاريخية ثقافية حضارية صارخة منها أن المؤرخ الأوربي لم يقم إبان قيامه إلى تدوين حضارات اليونان ومصر وبلاد الرافدين إلا بواجب خدمة الدول والحكومات والملوك والكنائس والنبلاء والأغنياء واللاهوت... والخ وإن

المؤرخ الأوربي لم يكن في ذلك العهد إلا شيئاً مخلصاً متفانياً في خدمة ألف ألف شيء وشيء إلا التاريخ.

- وقام المؤرخون ومنهم مؤرخو الفلسفة إلى هجاء السوفسطائيين.
- وقام النقاد والمصلحون واللاهوتيون والأخلاقيون والوعاظ والأدباء والناس جميعاً إلى هجاء السوفسطائيين.
- وامتلأت الكتب والمكتبات والدنيا بهجاء السوفسطائيين.
- وصار اسم السوفسطائيين سبة.
- وصار اسم السوفسطائيين ذميماً مذموماً.

وما كان ذلك ليكون إلا كذلك لأن السوفسطائيين لم يكونوا في أيامهم إلا من أنصار الحق والحقيقة والنسبية والإنسانية والتاريخ: تاريخ العمل النافع بالعلم الصحيح وتاريخ الكسب الحلال من العمل الشريف وتاريخ النسبية.

وذلك لأن السوفسطائيين شعبيون ديموقراطيون إنسانيون يعتمدون على الإنسان غاية ويطرحون الثقة الكبرى في قدراته الحسية والعقلية والعاطفية ويأتمنونه على تدبير شؤونه جميعاً في التربية وفي العلم وفي الأخلاق... والخ... والخ.

وذلك لأن السوفسطائيين نسبيون يرون أن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً: مقياس وجود ما يوجد، ومقياس لا وجود ما لا يوجد، وأن الشيء لا يكون على حال إلا بالنسبة إلى زمان ومكان وأشياء والخ... والخ... والخ.

- ولا تتبع زكي نجيب محمود ويوسف كرم في هجاء السوفسطائية ومذمة السوفسطائيين فما هذان إلا مترجمان قد أجادا نقل الرأي الفاسد الرديء من كتب الأوربيين الذين لم يكن من مقاصدهم أن يذموا شيئاً من التاريخ إبان قيامهم إلى تدوين التواريخ الكبرى التي هي تواريخ اليونان

ومصر وبلاد ما بين النهرين وتظل خطيئة الجميع في رقبة الانغلاق الاسكولاستيكي الذميم.

- وأطلبوا حقيقة السفسطة والسوفسطائيين عند بيرتراند رسل.
- واطلبوها عند جون ديوي.
- واطلبوها عند وليم جيمس واطلبوها عند سارتر وعند اوجست كونت وعند جميع الذرائعيين والوضعيين والوجوديين والخ... وجميع العقلاء.
- واطلبوها عندي أنا تجدوا أن السفسطة اليونانية قد ظلت أساساً لجميع المذاهب النسبية، ولجميع النزعات الإنسانية... ولجميع أنواع التربية التي لا تطلب العلم إلا بغية العمل النافع الممتع الجميل المفيد.
- ولا تطلبوا حقيقة السوفسطائية من أولئك الذين ينقلون الرأي عن آخرين لا يخدمون التاريخ ولا الحقيقة في التدوين.

مناقب السوفسطائيين

- تأمل الخير في نفسك.
- تأمل الخير في نفسك تجده.
- تأمل الخير في نفسك تجده وتكن خيراً.
- تأمل الخير في نفسك تجده وتكن خيراً فاضلاً.
- تأمل الخير في نفسك تجده وتكن خيراً فاضلاً سعيداً.

وهكذا يجمع سقراط المعرفة بالنفس والخير والفضيلة والسعادة جمعاً أخلاقياً نفسياً تربوياً دينياً اجتماعياً سياسياً... ذلك لأن الإصغاء إلى نداء خير النفس يعني إصغاء إلى نداء الآلهة عند سقراط الذي يرى أن النفس خيرة بالطبع وبالحيثية وبالذات وأن المعرفة بالنفس معرفة بالخير... ومحال أن يعرف الإنسان الخير ويرتكب الشر... واعرف نفسك تعرف الخير وتكن خيراً فاضلاً سعيداً.

تلك هي النظرة السقراطية إلى الإصلاح التربوي النفسي الديني الأخلاقي والخ... والخ... وإلى آخر الأشياء التي تمس الإنسان كائناً نفسياً أخلاقياً تربوياً دينياً... وهي نظرة تخالف اليوم جميع حقائق العلم والدين... ذلك أن النفس أمارة بالسوء في دين الله جميعاً من محمد إلى إبراهيم صلوات الله وتسليمه عليهم أجمعين... ولو لم تكن النفس أمارة بالسوء لما كان أمر من أمور الخطيئة الأولى وأول المعاصي في التاريخ فهبوط آدم وحواء من جنة الخلد وملك لا يبلى إلى هذي الأرض فتوالي الخطايا والأخطاء في الذرية حتى هذه اللحظة من التاريخ ومنها خطيئة وخطايا

الذين تظل في رقابهم لا عليه من أخطائه شيء ما دامت أخطاؤه ليست إلا من باب المكروه المعاد من أخطاء الآخرين حين يغمضون عيونهم ويسدون آذانهم ويسيرون وراء المؤرخ الأوربي النصراني الاسكولاستيكي اللاهوتي الذي يقتاد التاريخ ومعه الفلسفة من الذنب ويركبهما معاً والدنيا كلها بالمقلوب.

وإلا فالنفس لا تكون إلا أمارة بالسوء وإنها لا تكون أمارة بشيء إلا في بيئة... وهذه نسبة: أي بالنسبة إلى وضعها وعلاقتها في البيئة البايولوجية الفسلجية التطورية التاريخية الحضارية الاجتماعية الثقافية والخ... والخ والجغرافية والفلكية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والتربوية والخ... والخ... والخ وإلى آخر ما لا يحصى ومن العلاقات والروابط والنسب وتقلبات المتغير من ظروف المادة والزمان والمكان وكلها كلها المحسوس إذا الإنسان حاس كما كلها كلها المعقول إذا الإنسان عاقل... والخ... والخ حتى يصح قولك إنها جميعها من الإنسان وإلى الإنسان وحوله وفيه إذا كانت موجودة وإلا فلا هي موجودة ولا هو موجود.

والأشياء في تغير وتبدل مستمر ولا يستقر شيء من عالم المعقول أو المحسوس على حال لحظتين... ولا أصح من قول بروتاغوراس والسوفسطائيين إن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً مقياس وجود ما يوجد ومقياس لا وجود لما لا يوجد... وإن الوجود موجود ولا يمكن أن يكون غير موجود وإن اللا وجود غير موجود ولا يمكن أن يكون موجوداً: جامعاً بين عظيمين من عظماء الفلاسفة وهما بارمنيدس وهيراقليطس وكل منهما أعظم مليار مليار مرة من سقراط في الفلسفة وفي العلم وفي التربية وفي الأخلاق وفي التاريخ.

ونحن لم نفضل السوفسطائيين على السقارطة من تلقاء أنفسنا أهواء وهوى مزاجياً ساقطاً خارج التاريخ كما فعل الاسكولاستيكيون القدماء والاسكولاستيكيون المعاصرون في تفضيلهم السقارطة على السوفسطائيين.

بل نحن محكومون بصحة السوفسطائيين داخل تاريخ النسبية العامة والوضعية الاجتماعية والاسمية والحسية التجريبية والطريقة العلمية والخ... والخ وبالمنحى السوفسطائي الذي كان منحى إجرائياً عملياً فعلياً محكوماً بالتخطيط التربوي النفسي الأخلاقي لتهيئة أسباب النجاح التي لا تكون إلا بالعمل الصالح بناءً على العلم الصحيح... وإن النجاح في التطبيق عملياً بالفعل وسيلة غير بديلة لقياس صحة الرأي وصواب النظريات... ذلك بأن الرجل الفاضل عند السوفسطائيين هو الرجل الناجح المتلائم اجتماعياً المتماسك نفسياً الكاسب حلالاً من العمل الشريف النافع المثمر الذي لا يكون إلا بالرأي الصائب والنظر الصحيح... ونعوذ بك اللهم من علم لا ينفع قاعدة أصولية في دعاء الدين كله من محمد إلى إبراهيم صلوات الله عليهم اجمعين.

ويظل السوفسطائيون أقرب من السقارطة إلى جوهر الدين في النظر إلى طبائع النفس وغريزتها الأولى الآثمة المفطورة على الخطيئة والمعصية في دين الله كله من محمد إلى إبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين.

وهذا شيء... أما الشيء الآخر فإن سقراط لم يكن في حقيقة الأمر إلا فضاً غليظ القلب شرساً والخ... والخ... وفيه من العيوب ما لا تقبله على عشر معشارها جامعة من جامعات هذي الأرض تحت قبة أخلاق القرن العشرين التي هي أخلاق سوفسطائية قائمة على أخلاق تربوية نفسية سوفسطائية براجماتية ذرائعية عملية نسبية وضعية لا يتسابق الناس إلا تحت قبتها مهما اختلفوا في اللغة أو في العرق أو في اللون أو في الثقافة أو في المذهب أو في الدين.

أما الثالثة فإنها من الرصين الأصيل المبتكر الثوري الانقلابي في النظر إلى فلسفة التاريخ ودور الدين فيه بأن الأنبياء لم يكونوا في السياسة إلا ديمقراطيين يدعون إلى إسقاط نظريات الحكم بالتفويض الإلهي وعبادة الملوك.

وهكذا كان أفلاطون الذي كان قد شارك في الحكم مرتين مع الديمقراطيين فلم تعجبه الدنيا معهم فانقلب عليهم وصار لا يحلم إلا بدكتاتورية الفيلسوف لنفسه يصير ملكاً أو لغيره من الملوك إذا تفلسف الملوك باشتراكية أفلاطون.

ومن محاورات أفلاطون الشهيرة محاورة عنوانها (الدفاع) وكلها دفاع عن سقراط الذي لم يكن في حقيقة الأمر إلا دفاعاً عن اشتراكية ودكتاتورية الفيلسوف الملك أفلاطون أو الملك الفيلسوف بعد أن يتفقه ويصدق مؤمناً بفلسفة أفلاطون والخ... والخ... وإلى آخر قصة منافع أفلاطون في الدفاع عن سقراط ضد السوفسطائئين.

ولأفلاطون في الدفاع عن سقراط حاجات وحاجات وحاجات والخ. والخ... وحاجة أخرى كذلك!! فما حاجتك أنت يا صديق في الدفاع عن سقراط وسقراط أعدى أعداء الديمقراطية والديمقراطيين... أتحدثك نفسك بشيء من الذي كان يريده أفلاطون من الدفاع عن سقراط ضد السوفسطائيين؟

هذا وإني أفلاطوني في التربية وفي الأخلاق وفي الفن وفي الاقتصاد وفي كل شيء إلا قتل المواليد الضعفاء والتشبيه به مما يخاف أمر الله يا صديق.

لكني أفضّل السوفسطائيين على سقراط وأرى أن أفلاطون لم يدافع عن سقراط بل إنه كان قد استعمله كما نستعمل أدوات الحلاقة التي منها أحياناً البقلاوة وشربت زبيب العافية وكبار الشعراء والعصافير.

هذا من جهة الاستعمال... أما من جهة الاستخدام فإني أرى - لا في المنام - بل في اليقظة أن أفلاطون قد استخدم سقراط كما يستخدم كل قوي غني كل ضعيف فقير... وكان أفلاطون من علية القوم ومن سراتهم ولم يكن سقراط إلا وبشاً حبربشياً ومن المنسحقين.

وعندي ألف سبب وسبب مدونة كلها عندي في كتاب وكلها تدعوني

- لا من تلقاء نفسي - إلى تفضيل السوفسطائيين على السقارطة أينما كان السقارطة السقارطة وأينما كان السوفسطائيون السوفسطائيون.

واقرأ - لا تقرأ كثيراً - اقرأ تاريخ اليونان وقلب في مؤلفات أرسطو وفي مؤلفات أفلاطون تقليباً سريعاً وضيع من وقتك بضع ساعات وقلب تقليباً سريعاً في مؤلفات توماس هوبز وجون لوك وهربرت سبنسر ونيتشه وغاليلو وفرنسيس بيكون ووليم جيمس وجون ديوي والخ... والخ من أمثال هؤلاء وبيرتراند رسل ودفاع أفلاطون عن سقراط ثم حاول أن تكتب بعد ذلك دفاعاً عن سقراط ضدي وضد السوفسطائيين.

إنك حينئذ لا تكون إذن إلا سوفسطائياً مثلي أنا ومثل الناس جميعاً ولكنهم لا يشعرون.

نيتشه وبيرتراند رسل بين سقراط والسوفسطائيين

▪ وما الأخلاق إذا كان في علمك أن الانفعال إحساس وأن العاطفة موقف وأن الموقف عادة حسية انفعالية عاطفية قبل أن يكون حكماً أو رأياً أو فكراً أو موقفاً عقلياً منطقياً أخلاقياً من عالم المبدأ الثابت والقانون، وإن العواطف عامة نوعان: نوع بناء في الشخصية ومنه الحب والاحترام ونوع هدام في الشخصية ومنه الكراهية والاحتقار، وإن العواطف البناءة لا تكون بفعل صلاح النصح والمواعظ والإرشاد بل بفعل الانفعالات السارة والإحساسات المريحة وإن العواطف الهدامة لا تكون بفعل فساد النصح والمواعظ والإرشاد بل بفعل الانفعالات المزعجة والإحساسات المتعبة... فما الأخلاق حينئذ وقد صار في علمك اليقين أن العواطف لا تصلح - إذا صلحت - بصلاح النصح والمواعظ والإرشاد ونظريات علم الأخلاق ولا تفسد إذا فسدت بفساد النصح والمواعظ والإرشاد ونظريات علم الأخلاق.

▪ وما الأخلاق إذا كان في علمك اليقين أن الاتزان والتوازن والتماسك والفضيلة والعدل أشياء لا تكون للشخصية إلا من عاطفة احترام الذات وإنها كأي من العواطف لا تكون في أدوارها التكوينية إلا على قدر الإحساس الداخل في بنائها بفعل الانفعال أو على قدر الانفعال الداخل في بنائها بفعل الإحساس: ولا على قدر النصح والإرشاد والمواعظ وقواعد الآداب العامة ومدارس علم الأخلاق ولا على قدر العقائد والأحكام والعبادات ولا على قدر الآداب والفنون والعلوم والفلسفات، فما الأخلاق، حينئذ، وقد صار في علمك اليقين، إن عاطفة احترام الذات

هذه مركز التوازن الشخصي واتزان الشخصية ومقر التماسك والعدل والأخلاق.

■ فما الأخلاق؟؟ ما الأخلاق وقد صار في علمك اليقين السايكولوجي المفلسف والفلسفي القائم على جميع حقائق التجريب المختبري إن عاطفة احترام الذات هذه لا تصلح بصلاح الأخلاق ولا تفسد بفساد الأخلاق بل إنها لا تكون إلا كما يكون في تكوينها فعل الانفعالات وأنماط السلوك الأولى المتمركزة حول الذاتية وحب الحياة والراحة والمنفعة والمتعة واللذة والازدهار؟

■ والعدل أساس التماسك والأخلاق كما التماسك أساس العدل والأخلاق... والأخلاق اسم يرادف العدل ويرادف التماسك ويرادفهما معاً في عاطفة احترام الذات التي يعرف الإنسان فيها نفسه وينزلها المنزلة التي تستحق في نفسه عند نفسه، وفي النفس من جهة قدرته على نسبة نفسه إليهم ونسبتهم إلى نفسه، فلا يظلم نفسه بإنزالها منزلة أقل درجة مما تستحق ولا يظلم الآخرين بإنزالهم منزلة أقل درجة مما يستحقون: الأمر الذي لا يكون إلا بمعرفة النفس معرفة سقراطية قائمة على الحكمة التي كانت منقوشة على باب معبد دلفي وهي (إعرف نفسك) إضافة إلى مبدأ العدل الأفلاطوني الذي لا يكون إلا بإعطاء كل ذي حق حقه وبإنزال الناس منازلهم التي يستحقون، وبرد الأمانات إلى أهلها... وكل هذه أمور لا تكون لأحد من الناس إلا إذا حصل التكامل والاتزان والتوازن في عاطفة احترام الذات التي هي بناء حسي انفعالي بايوكهرومغناطيسي فسلجي فيزيوكيميائي: لا تتماسك - إذا صلحت - بأسباب صلاح الأخلاق ولا تفسد - إذا تفككت - بأسباب من فساد الأخلاق... فمال الأخلاق؟؟

■ أم إنك قد لا ترى إلا حالاً من أحوال الفضيلة التي وجدها سقراط في الخير القائم المقيم في النفس ودعا الناس جميعاً إلى تأمل الخير الذي في النفس لا بناء إلا على أن الإصغاء إلى النفس يتضمن إصغاء إلى نداء الآلهة واستلهاماً للخير بمعرفته كما هو في النفس وكما هو في نداء الآلهة

فجمع سقراط الدين وعلم النفس والتربية أمراً واحداً... وهكذا فعل بروتاغوراس فجمع التربية وعلم النفس والدين أمراً واحداً وجعله علماً لإنشاء الإنسان الفاضل الذي هو الإنسان الناجح الذي يكسب حلالاً من العمل الصالح بالعلم الصحيح... ولا أصح من العمل لامتحان العلم... فما الأخلاق هذه التي لم تكن بين السقارطة والسوفسطائيين إلا طريقة في التربية لإنشاء الرجل الفاضل الذي رآه السقارطة في الخير وفي تأمل خيرات النفس وراء السوفسطائيون في النجاح وفي إعداد الرجل الناجح بتهيئة أسباب النجاح؟؟ وما الأخلاق إذن وقد صار في علمك اليقين أن الخلاف بين السقارطة والسوفسطائيين لم يكن إلا خلافاً في التربية فلسفة ونظرية وتطبيقياً ومنهج درس وقواعد انضباط وأصول تدريس فكان الخلاف بين تربيتين لا بين أخلاقيتين كما يكون الرأي حين نقتاد الثقافة من الذيل ونركب الفلسفة بالمقلوب فلا نرى الاتحاد بين سقراط والسوفسطائيين من جهة الغاية الأخلاقية الجمالية الكبرى التي هي إنشاء الرجل الفاضل السعيد.

▪ ولو كان للسوفسطائيين أن يبعثوا لبدأوا التربية في المدارس الصناعية والمعاهد التطبيقية والجامعات التكنولوجية حلقة واجبة بين دوائر العلوم الصرفة الأكاديمية وبين المعامل والمصانع ودوائر الانتفاع من التطبيق بالتصنيع بعد امتحان النظر بالتطبيق مثلما نحن اليوم فاعلون في أعلى مراحل تربية العصر الحديث.

▪ ولو عاد السقارطة لبدأوا التربية بالمعاهد اللاهوتية وبالدراسات الأدبية الكلاسيكية داخل دائرة منطق العقل وخارج منطق الأشياء وأخيلة الشعر والأساطير مثلما كان سكان العصور الوسطى يفعلون حين يسرفون.

▪ وما الأخلاق ونحن نعدك بدفاع عن مذاهب السفسطة سفسطة السوفسطائيين في الأخلاق وفي التربية والخ الخ... وفي الأشياء جميعاً وفي فلسفة التاريخ حتى لا تقوم لمدافع عن السقارطة قائمة ولا قيامة في ميدان امتطاء صهوة الفلسفة ركوباً صحيحاً واقتياد الثقافة من الرأس نحو

العمل الصالح بالعلم الصحيح... وما الأخلاق وأنت كلما وازنت مقارناً وكلما قارنت موازناً بين السقارطة والسوفسطائيين نفضل بها السوفسطائيين على السقارطة في التربية وفي علم النفس وفي نظرية المعرفة ومناهج البحث وفي الأشياء جميعها وفي فلسفة التاريخ بجميع أحكام الأخلاق والوجدان والعدل.

لا مع جان بول سارتر
ولا مع أرسطوطاليس

يمثل أرسطوطاليس كل مجمل النظر العقلي والمحاكمة المنطقية في الأخلاق: لا تصوف ولا شعر عنده في النظر إلى الفضيلة والسعادة والأخلاق... وهذا من جهة ما لا تراه فيثاغورياً، ولا تراه سقراطياً ولا تراه أفلاطونياً في النظر إلى الإنسان... ذلك لأن هؤلاء قدموا الجميل على المنطقي ورفعوه فوقه بدوافع صوفية شعرية جمالية صوفية... واستخدموا كل قوى منطق العقل في هذا المجال.

ويمثل جان بول سارتر كل مجمل النظر اللا عقلي اللا منطقي في الأخلاق: لا تصوف ولا شعر عنده في النظر إلى الفضيلة والسعادة والأخلاق... وهذا من جهة ما لا نراه ديكارتياً ولا نراه كانتياً ولا نراه هيجلياً في اتكاء هؤلاء على أسبقية الكلي المطلق المجرد على الجزئي النسبي المحسوس بكل مفهوم الواقعية الاسكولاستيكية لهذه الأسبقية منطقها أرسطياً وتقريب (صور) أرسطوطاليس من (مثل) أفلاطون و(مثل) أفلاطون من (صور) أرسطوطاليس وتحويل الحديث الفلسفي إلى مجرى الحديث عن (الفكر) و(اللامادي) و(اللامتناهي) و(الكامل) و(المطلق) وإقامة التأسيس الأخلاقي على هذا المزيج من المصطلحات التي لم تكن عند أرسطوطاليس والاسميين الاسكولاستيكين إلا تسميات وأسماء يرقى العقل إلى صياغتها بالتجريد بعد التجريب: لا شعر ولا تصوف ولا أسبقية للمعقول على المحسوس كما اعتقد أفلاطون وتبعه كل الواقعيين الاسكولاستيكيين.

ولم يصدر جان بول سارتر - دعنا نعبر إلى الضفة الأخرى من النهر - من توماس هوبز الذي أسقط غريزية وفطرية الفكر، وأقام أعمدة صرح الفعل الشرطي المنعكس تأسيساً على غريزة واحدة هي غريزة حب الحياة والمحافظة على البقاء: الغريزة التي يشترك بها كل الأحياء... كما لم يصدر من جون لوك الذي أكد إنكار أن يكون العقل قبل التجربة الحسية إلا الاستعداد لقبول آثار المحسوسات وأنكر أن يكون في العقل بعد هذه التجربة الحسية غير الذي تأتي به إليه الحواس من المحسوسات، وحول مجرى الحديث الفلسفي من الحديث عن (الجواهر) و(الأعراض) إلى الحديث عن (صفات أولية) و(صفات ثانوية) هازاً بهذا التحويل كل أمجاد أرسطوطاليس القائمة على التمييز بين (الجواهر) و(الأعراض) وعلى تمييزه بين (المادة) و(الصورة)... وهازاً به كذلك كل أسس التفسير الكيفي في العلوم الطبيعية ومبدأ التفسير الكمي في الكيمياء الحديثة التي يذهب مؤرخو العلم إلى أنها بدأت بلافوازيه واكتشاف الأوكسجين ونذهب نحن - على كل أخذنا بهذه الحقيقة التاريخية - إلى أنها بدأت بجون لوك وتمييزه (خواص أولية) و(خواص ثانوية) في الأشياء.

فما فيلسوف لا يصدر في التأسيس الفلسفي للأخلاق من الأساطين أفلاطون وأرسطوطاليس وديكارت وكانت وهيجل؟

وما فيلسوف لا يصدر من هؤلاء ولا يصدر من توماس هوبز وجون لوك؟

ما فيلسوف لا يصدر في التأسيس الفلسفي للأخلاق من العقليين المثاليين ولا يصدر من الحسيين التجريبيين؟

وما فيلسوف في التأسيس الفلسفي للأخلاق إذا لم يكن أسطورياً فنرده إلى هزيود أو هوميروس؟؟ وإذا لم يكن صوفياً مثالياً فنرده إلى فيثاغورس؟؟ وإذا لم يكن مثالياً شاعرياً فنرده إلى أفلاطون؟؟ وإذا لم يكن عقلياً منطقياً فنرده إلى أرسطو طاليس؟؟

بل ما فيلسوف لا تستطيع أن ترده إلى هؤلاء، ولا تستطيع أن ترده إلى الأبيقوريين ولا إلى الرواقيين من جهة إعلاء هؤلاء وأولئك قانون الطبيعة فوق قانون العقل، وتأسيس الأخلاق على قوانين الطبيعة، ناصحين باتباع قانون الطبيعة مع ملاحقة اللذائذ ألماً فيتحولون بالنصح إلى عقليين لا فرق بينهم وبين أفلاطون وارسطوطاليس غير أن هذين نصحا بالاعتدال وفق أحكام منطق العقل وأن أولئك نصحوا بالاعتدال وفق قوانين وأحكام منطق الطبيعة... وليس من فرق جوهري بين الرواقية والأبيقورية من جهة وأرسطو وأفلاطون من جهة أخرى غير أن هذين قد تحدثا بلغة التوسط والاعتدال، وأن أولئك قد تحدثوا بلغة الانسجام مع قانون الطبيعة انسجاماً لا إسراف فيه إلى الحد الذي تنقلب فيه اللذائذ آلاماً... وهذه حالة عقلية مثلما الوسط والاعتدال حالة حسية... وإلا فبماذا تعين وسط واعتدال العقل إن لم يكن بحد حسي محسوس؟؟ وبماذا تعين حد الانسجام مع قانون الطبيعة والغرف من اللذائذ الحسية حتى انقلابها آلاماً ما لم ترجع إلى سيادة أحكام العقل؟

وما جان بول سارتر في الأخلاق إذا كنت لا تستطيع أن ترده إلى سيادة منطق وقانون الطبيعة فوق قانون ومنطق العقل كما لا تستطيع أن ترده إلى سيادة هذا القانون والمنطق إلى ذاك؟

بل ما جان بول سارتر إذا كنت لا تستطيع أن ترده إلى فيلسوف اعتباطي مثل جان جاك روسو؟ ولا إلى فيلسوف تجميعي مثل هربرت سبنسر؟

إنك ربما تعترض على كل هذا فتقول: إن مؤرخي الفلسفة يجمعون على أن الوجودية تاريخ فلسفي يمتد من دستوفسكي إلى جان بول سارتر وإن هذا يجب أن يدرس داخل هذا التاريخ.

ولك إذا شئت أن تظل مبتهجاً بهذا الذي تقول كما عليك أن تسأل: ماذا يبقى من فيلسوف التاريخ إذا لم يدخله من باب العلم بعلم ولم يدخله من باب الفلسفة بفلسفة؟

أجل... إن سارتر لم يدخل الفلسفة من باب البايولوجي مثلما فعل دارون، ولم يدخلها من باب السايكولوجي مثلما فعل فرويد وبافلوف، ولم يدخلها من باب الرياضيات مثلما دخلها نورث وايتهيد وبرتراند رسل، ولم يدخلها من باب الفيزياء والفلك مثلما فعل اينشتين... إنما كان قد دخلها من أبواب الأزقة الخلفية للباربيز والحي اللاتيني في باريس مثلما دخلها كولن ولسن من عتمات سوهو وأحياء لندن الشرقية... على أن كولن ولسن قد دخلها من هذا الباب مزوداً بوعي تاريخي وانثروبولوجي وبفتوة مزاج شخصي وشهية لتذوق طعوم أفراح الحياة: الأشياء التي بخل بها الحظ على سارتر الذي دخل الفلسفة من باب رفض الفلسفات العقلية بلا وعي تاريخي وبلا نصيب من العلم وبلا الحد الأدنى من احترام الفلسفات الحسية التجريبية.

ولسنا من أنصار التصنيف المنطقي ميكانيكياً للفضائل وأركان السعادة لنكون مع أرسطو.

ولسنا من أنصار إلغاء هذا التصنيف فيكون البديل استبطاناً ذاتياً متفلتاً وتفصيلاً لأركان التعاسة لنكون مع سارتر الذي ظل ويظل أرسطياً لم يزد في التفلسف الأخلاقي على الدوران حول محور (الماهية - الوجود) بلا تحصيل من التأسيس البايولوجي والفلكي والمنطقي والنقدي الأدبي: التحصيل الذي كان لأرسطو ولم يكن منه شيء لسارتر الذي صرفه الطموح الأدبي من التأسيس الفلسفي الرصين فصدق عليه أنه: تأدب... تأدب... تأدب... حتى انتفخ بالأدب وتضخم بالشحم الذي كان ورماً وكبر بالتضخم وبالانتفاخ وظل في العراء لا إلى مغارة الفلسفة ولا إلى مغارة الأدب... وهذا تعريض من مثل يضربه الوجوديون في رفضهم للنظم العقلية على هذا النحو.

أن تفكر!! وتفكر!! وتفكر!! لا يكون حالك إلا حال الأرنب الذي يأكل!! ويأكل... ويأكل... ويأكل... حتى ينتفخ ويتضخم فيفقد القدرة على ولوج باب مغارته فيظل في العراء!!

تظل الثقافة غير ممكنة
إلا بأرسطو وبالخروج عليه

بل إنه المعلم الأول ومؤسس المنطق وباني كل أمجاده، وكل أمجاد أحكام العقل... وإنه بداية توطيد علوم الحياة نباتاً وحيواناً... وإنه هو لا غيره، الذي أرسى قواعد وأسس التصنيف: تصنيف الكائنات الحية، وصير النظر في هذه الكائنات علماً تداوله أعمدة علوم الحياة من بعده فطوروه: معتمدين على تأسيسه، لا على تأسيس غيره، أول ما نهضوا إلى إقامة علم الحياة استقرائياً تجريبياً مختبرياً في العصر الحديث.

وإنه المعلم الأول في الطبيعة وفي ما بعد الطبيعة، ومن أعمدة علم الفلك القديم ومن الأعمدة المعدودين.

وإنه المعلم الأول في النقد الأدبي، وإليه لا إلى غيره رجع الأوربيون في أول قيامهم إلى تأصيل وتفريع قواعد النقد الأدبي في العصر الحديث.

وإنه خلاصة كل الذين جاءوا بعده في النظر إلى الإنسان - فرداً ومجتمعاً - ومن أخطر أعمدة بناء النظر في السياسة وفي التربية وفي الأخلاق وفي الاقتصاد: لم يرق إلى مرتبته في هذا النظر أحد من الأقدمين.

وإنه المعلم الأول الذي وعى كل ثقافات الحضارات الأولى: عراقية ومصرية وإغريقية، فكان له من هذا الوعي أن صار معلم الدنيا كلها في الآداب وفي العلوم وفي الفنون وملأ الدنيا كلها فلسفة وعلماً وأدباً وانشغل كل أعمدة الثقافة من بعده في كل الدنيا بآرائه: يشرحون ويفسرون

ويختصرون ويقبلون ويرفضون ويختلفون ويختصمون ويتفقون ويتمذهبون: حتى كانت الفلسفة ليست إلا شروحاً لفلسفة هذا المعلم الأول أرسطوطاليس.

واجمع كتب هذا المعلم وأقرأها وأغمض عينيك بعد القراءة في سويعة من سويعات الراحة وتصفية الحساب الثقافي، وأسأل نفسك: ما مصير ثقافة أمة البشر لو لم يكن في الدنيا أرسطوطاليس؟ تجد أن مؤلفات هذا المعلم مجمع كل ثقافة الذين جاؤوا قبله إلى الثقافة، وأساس كل الذين جاءوا إليها بعده حتى هذه اللحظة من التاريخ... هذا وإنك بعد هذا الذي تجده لا تجد بداً من أن ترى ساحة دنيا الثقافة خربة إذا أنت لم تر فيها أرسطوطاليس.

وأعد قراءة كتب هذا المعلم الأول مرة أخرى وأغمض عينيك بعد القراءة في سويعة من سويعات الوعي التطوري وتطور الثقافة بعد أرسطوطاليس، واسأل نفسك: ما مصير ثقافة أمة البشر لو لم ترفض هذه الأمة آراء أرسطوطاليس؟ تجد أن تطور الثقافة خاصة وعامة لم يكن ممكناً إلا بالخروج على تعاليم هذا المعلم الأول الكبير أرسطوطاليس: خلاصة ثقافات كل الذين سبقوه في التاريخ، وأساس ثقافات كل الذين جاءوا من بعده حتى هذه الساعة من الإنسان والفلسفات والتطور والعلوم.

إنك لكي تدرك منطق هذه العبارة عليك أولاً أن تخلص مع نفسك من آثار التضحيل الكروتشي الذي هو من بادي الوهم المشترك بين كل المتوهمين مرتين: مرة باعتقادهم أن الماضي كامن يكمن في الحاضر ويمهد للمستقبل، ومرة لأنهم ينسبون هذا الرأي في توثيق التأصيل إلى كروتشه... ذلك لأن الحقيقة هي أن هذا رأي لا يرجع إلى كروتشه خاصة بقدر ما قد تنسب الاعتقاد بأن الأرض سطح مستوي مسطح إلى فلان الفلاني فتخصه بهذا الرأي قبل نشوء فلك وجغرافية مركزية الشمس وكروية الأرض ودورانها حول محورها وحول الشمس... وهذه حقيقة... أما الحقيقة الأخرى فإنها لو أن الماضي كمن في الحاضر لخربت الدنيا كلها

ولما كان في الدنيا تقدم وتطور ورقي وترقي في مدارج الكمال من حسن إلى أحسن... هذه الثانية... أما الحقيقة الثالثة - ونحن بها وعليها لا بغيرها ولا على سواها تطوريون - فإنها لا يكون التطور في نظرنا إلا بكمون المستقبل في الحاضر من كل آثار الماضي الذي لو كمن الحاضر لما كان تطور وتقدم ومستقبل إلى يوم الدين.

- ما أعظم الفعل الإنساني في التاريخ؟

- التربية.

- ما أعلى أنواع التربية في التاريخ؟

- إنها تربية الإنسان.

- ما جوهر تربية الإنسان؟

- إنها تربية لا تستهدف التدجين، ولا تستهدف التطويع، ولا تستهدف التكثير، ولا تستهدف التسمين، ولا تستهدف الإنسان وسيلة بل تستهدفه غاية تنقل إليه كل المتراكم من خبرات الإنسان عبر العصور جميعاً منذ بداية وعي الإنسان وتنقلها إليه لينتفع بها ولينقدها طلباً لزيادة النفع، وليرفعها مطورة إلى الأجيال القادمة: جيلاً بعد جيل على ألسنة نفسها: انتفاع الخبرات الماضية في ضوء مستلزمات المستقبل الكامن في الحاضر... وإلا فهل نحن في التربية نعد الجيل للتلاؤم مع الماضي.

إن التربية الإنسانية - حينئذ - إنشاء يستهدف الإنسان غاية نحو مستقبل أفضل بحكم حاجات المستقبل الكامنة فيه وفي حاضره وفي كل ما حوله وحول ماضيه لا بحكم الماضي الكامن وفي حاضره وفي كل ما حوله وحول ماضيه لا بحكم الماضي الكامن في حاضره وحاضر ما حوله بأي من الأحوال، وإلا فسدت طبائع التطور، وفسد زمان الوصل في بلاد التقدم، وفسد الرقي في أوطان رقي الحضارة والثقافة والإنسان في مدارج التاريخ..

أم إنك تعد ذريتك لماضٍ أحسن من حاضرهم الذي هم فيه!!؟؟

إن الحاضر لا يسير إلى المستقبل بالماضي الكامن فيه... ذلك لأن هذا السير مستحيل... ذلك لأن الحاضر لا يسير إلى المستقبل إلا بفعل المستقبل الكامن فيه... وإلا فهل من منطق العقل ومنطق طبائع الأمور أن تتحرك أو أن تحرك غيرك بدافع من حاجة أمسك الكامنة في حاضرك؟؟

أجل أن الضيق بالماضي والتضايق منه قد يكون من الدوافع الأساس في تحريكه إلى المستقبل... لكن هذا لا يعني إلا أنك لا تستطيع التحرك نحو المستقبل إلا بعد أن يلغ ضيقك بالماضي أشده فتطرده من حاضرك طرداً مؤدباً يتيح لك التحرك بفعل جذب المستقبل الكامن فيك.

هذا... ولم يكن أرسطوطاليس إلا ماضياً من الذين مضوا... وهذا منجهه إنه حفظ لأمة البشر كل خلاصة ثقافات الحضارات القديمة عبر كل العصور حتى أيام مجيئه إلى الحظ الكبير أو حظ مجيء الحظ الكبير إليه بأن جاد عليه الدهر أن يكون الواعي الجامع الحافظ لكل ثقافات الذين مضوا قبله في التاريخ عباقرة أعمدة فاتحين: عراقيين ومصريين وإغريق.

أما من جهة التصور فلم يكن أرسطوطاليس إلا آتياً من المستقبل إلى الحاضر ليكمن فيه ويحركه إلى مواطن المستقبل الذي جاء منه أرسطوطاليس.

هناك، إذن، المتراكم من كل ثقافات أمة بني آدم بما في هذا التراكم معها من ثقافة أرسطوطاليس الآتي إلى الحاضر ليطرد الحاضر بأرسطوطاليس القادم من المستقبل، وليدخل الحاضر مجذوباً بحاجات المستقبل مدخل صدق في التطور الكبير: الذي لا يكون إلا بتوجه الكون كله نحو المحرك الذي لا يتحرك: نحو الغاية العظمى: نحو الكمال المطلق: نحو التطور المؤبد بلا توقف ولا وقوف... لم تكن، إذن، الثقافة الفلسفية ممكنة القيام إلا بأرسطوطاليس القادم من المستقبل وبالخروج على أرسطوطاليس الآتي من ماضي الثقافات.

■ ما الزمان؟

- مدة تعدها الحركة.

■ ما الزمن الماضي؟

- كل زمن الدهر حتى خط الحاضر.

■ ما الزمن المستقبل؟

- كل زمن الدهر بعد خط الحاضر.

■ ما خط الحاضر؟

- خط هندسي لا بعد فيه ولا مادة ولا حركة ولا زمان: لا زمن فيه.

■ وما الحاضر، إذن، على هذا التعريف؟

- إنه حد لا زمن فيه بين زمنين، هما: الماضي والمستقبل لا يعبره من الماضي شيء إلا ضمن حدود أحكام المستقبل فيكمن المستقبل عند هذا الحد نفسه ليوجه التطور والتقدم ورقي الإنسان الذي لا يكون في الثقافة إلا عند خط الحاضر الذي تقبل وترفض عند أرسطوطاليس.

■ وما عظمة أرسطوطاليس؟

- إنها أن الملأ الثقافي يرفضه كله ويقبله كله عند كل خط من خطوط الحاضر... وإنها أن الثقافة تزدهر بالرفض وبالقبول... ذلك لأنه المعلم الأول الذي يظل الأول في المعلمين.

ويظل العظيم عظيماً خطيراً تنقض برفضه عظيماً خطيراً وتبرم بنقصه عظيماً خطيراً من الأمور... هذا... ويضل الصغير صغيراً: بالرفض إذا تنقضه وصغيراً بالقبول إن تقبله وصغيراً من الجهات والوجوه... ويظل المعلم الأول أرسطوطاليس أولاً في المعلمين.

سقارطة وأبيقوريون

ومن المأثور الشعبي المتداول بين الناس قولهم: «عشيني اليوم واذبحني غداً» وقوله: «فلس في اليد خير من دينار في الغد» وقولهم: «عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة»، ومن المأثور الأدبي في هذا الباب قول الشاعر: «ما مضى فات والمؤمل عيب، ولك الساعة التي أنت فيها».

هذا، وقد لا ترى في المأثورات وأضرابها إلا استعجالاً لأفراح سوانح يومك بين غد غسلت منه يديك إلى الرسخين وأمس غسلتهما منه معاً وغسلت معهما الذراعين إلى المرفقين مرتين... ومن المأثور الأدبي في هذا الباب قول الشاعر:

«يشرب الكأس ذو الحجا ويبقي　　لغد في قرارة الكأس شيئا

لم يكن لي غد فأفرغت　　كأسي ثم حطمتها على شفتيا».

من الناس من لا يصدق الدهر على وعد... ولا يبيتون على كلام للزمن إلى الغد... أجل، إنهم الذين لم يعدهم الدهر خيراً بخير إلا ليخلف الوعد.

وما السبيل إلى العدل - على الجهة الفلسفية من الأمر - إذا أنت لم تجد للأبيقورية وللأبيقوريين ولأبيقوراس عذراً عاذراً وشفيعاً شافعاً يعذرهم ويشفع لهم كلما انغمسوا في اللذائذ السانحة في غفلة من الدهر الذي قد يخلف الوعد قبل الغد.

ومن المأثور الأدبي في هذه الباب الأبيقوري قول الشاعر:

«إذا أنت لا تستطيع رد منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي»

ومن المأثور الشعبي بين الناس كافة قولهم: إن الإنسان يعيش مرة واحدة لا مرتين وأنه يعيش عمراً واحداً لا عمرين... وهذا - على الجهة الأخرى من التوثيق الأكاديمي - مأثور فلسفي تقوم عليه كل الفلسفة الأخلاقية عند أبيقورواس والأبيقوريين الذين بسطّوا المسألة الأخلاقية تبسيطاً بلغوا به أقصى غايات التبسيط إذ أذاعوا في الناس أن الفضيلة والحكمة والسعادة واللذة أمر واحد متوحد متحد، وأن الرذيلة والجهل والشقاء والألم أمر واحد متوحد متحد.

هذا، وإن الرجل الفاضل رجل حكيم وسعيد... وإن الرجل الحكيم رجل فاضل وسعيد... وإن الرجل السعيد رجل فاضل وحكيم... وإن الرجل الفاضل الحكيم رجل سعيد بالحكمة التي تقضي بأن يطلب الإنسان اللذة لأنها خير، وأن ينفر من الألم لأنه شر... وليس من منطق الحكمة أن يقعد الرجل عن طلب اللذة ما استطاع إليها سبيلا... وإلا وقع في آبار الجهل والجهالة والشرور.

وهذا - سيداتي سادتي - أول وآخر تبسيط للمسألة الأخلاقية في تاريخ الفلسفة كله منذ بداية الفلسفة في القرن السادس قبل الميلاد حتى هذه الساعة من زمن الفلسفة والتربية والأخلاق.

وإلا فأي من التبسيط يبلغ مبلغ هذه البساطة الأبيقورية في تسهيل صعب وشائك تعقيد مسائل اللذة والألم والخير والشر والسعادة والشقاء والفضيلة والرذيلة والغاية الحكيمة القصوى في الحياة.

ما الخير؟ إنك تسأل الأبيقوري.

فيقول لك الأبيقوري: إنه اللذة.

وما أقصى درجات الخير في الكمال؟

فيقول لك الأبيقوري: إنه أقصى درجات اللذة.

وما الشر؟

فيقول لك الأبيقوري: إنه الألم.

وما أحط درجات الشر في الانحطاط؟

فيقول لك الأبيقوري: إنه أعلى درجات التألم في الألم.

ومن الرجل الفاضل؟

فيقول لك الأبيقوري: إنه الرجل الحكيم.

ومن الرجل الحكيم؟

فيقول لك الأبيقوري: إنه الرجل الذي يطلب السعادة في اللذة... ذلك لأن هذا مطلب الرجل الحكيم الذي يطلب الخير في اللذة واللذة في الخير، وينفر من الشر في الألم والألم في الشر.

وكل هذا تبسيط لا يعرف قدره أكاديمياً في الفلسفة، وفلسفياً في الثقافة وفي الأكاديمية إلا الذين خبروا صعوبات مداخل ومخارج المسألة الأخلاقية في فلسفات: فيثاغوراس وسقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس والمدرسيين في العصور الوسطى حتى ليبنز وسبينوزا وكانت وهيجل والآخرين من غلاة العقليين المثاليين وغلاة الحسيين التجريبيين في العصور الحديثة التي يؤرخ لبدايتها في تاريخ الفلسفة بالقرن السادس عشر حيث اصطف كل العقليين المثاليين وراء رينيه ديكارت واصطف كل الحسيين التجريبيين وراء توماس هوبز بتأسيس ديكارت على فيثاغوراس وسقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس وبتأسيس توماس هوبز على هيراقليطس وديموقريطس والسوفسطائيين وأبيقوراس.

وارجع الآن إلى المأثور الشعبي المتداول بين الناس كافة وقولهم: إنه يعرف قدر نفسه، كلما أرادوا إطراء وتطرية رجل بمديح يستحقه بناء على الذي يبدو منه ويظهره من الاستقامة والتوازن والاتزان وحسن النية ودماثة الخلق ومحاسن الطبع والسلوك.

هذا وإن قولهم: «إعرف نفسك» من المأثور الشعبي الشائع المتداول بين الناس كافة يقولونه للتنبيه، ويقولونه للتبصرة، ويقولونه للنصح وللإرشاد وللموعظة الحسنة، ويقولونه للتحدي ويقولونه للإغاظة، ويقولونه للزجر، ويقولونه تمهيداً، للتهديد ومقدمة للوعيد وبداية لكل أنواع التنبيه: خيراً وشراً وللنذر... ويقولون إذا أرادوا أن يذموا رجلاً: إنه لا يعرف قدر نفسه أو إنه رجل لا يعرف نفسه، كلما أرادوا ذم رجل يعوج ويفقد التوازن والاتزان فتسوء سيرته حتى يشرف على فقدان السمعة الحسنة كلاً وجملةً وتفصيلاً ومن كل الجهات والوجوه... هذا، ولا يكون استكمال الفضائل إلا بالإقبال على تهذيب النفس ومن المأثور الثقافي في هذا الباب قول الشاعر:

«أقبل على النفس واستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان»

ومن المأثور الأدبي في باب تهذيب النفس وحملها على الفضائل قول الشاعر:

«والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم»

ومن المأثور الأدبي في هذا الباب كذلك تأكيد الشاعر أهمية النفس في قوله:

«صن النفس واحملها على ما يزينها تعش سالماً والقول فيك جميل»

ومن باب تمجيد النفس قول آخر:

«أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر»

ومن المأثور الأدبي في ثقافتنا المفلسفة هذا القول:

«هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات توجع وتفجع»

من عينية ابن سينا التي يصف بها وفيها النفس الإنسانية العاقلة الناطقة الإلهية وهبوطها في غياهب ظلمات الجسد وانهماكها بتكاليف ثاء هذا الثقيل المادي المظلم.

هذا، والجسم سجن الجسم عند كل المتصوفة وعند كل الفلاسفة المثاليين العقليين وعند كل الفلاسفة اللاهوتيين.

وارجع إلى المأثور الثقافي دينياً وأدبياً تجد أنك تستطيع - إذا شئت - أن تجمع من الأشعار ما تؤلف به ألف حمل بعير من الكتب وكلها تؤكد روحانية وخلود النفس، وتؤكد ألوهية مصدرها، وتؤكد واجب معرفتها كما تؤكد واجب ضبطها وكبح جماحها الكثير من الرغبات والنزوات والشهوات: جزءاً لا يتجزأ من صلاح العقيدة في الدين، وجزءاً لا يتجزأ من صلاح أمر الأخلاق.

وارجع إلى القرآن وأقرأه تجد:

أولاً: إن النفس لأمارة بالسوء.

ثانياً: قل الروح من أمر ربي.

ثالثاً: عشرات الآيات التي تحث الإنسان على معرفة النفس وعشرات مثلها لحثه على معاندتها وعصيان أوامر هواها.

هذا، والنفس خاطئة مخطئة في القرآن وفي الإنجيل وفي التوراة وفي كل أسفار الأديان التي تقوم الأخلاق فيها أول ما تقوم على التوبة وعلى إصلاح النفس بعد التوبة والإنابة إلى أمر الله.

وهذا تأسيس أخلاقي جديد لا ينتظم في الخط الأبيقوري ولا ينتظم في الخط السقراطي.

هذا وإنك تستطيع إذا شئت وراق لك أن ترقى من مأثورك الثقافي شعبياً وثقافياً ودينياً إلى أعلى مراحل التأسيس الفلسفي للأخلاق على هذا النحو: من اعرف نفسك إلى التأسيس السقراطي... ومن عشني اليوم واذبحني غداً إلى التأسيس الأبيقوري... ومن إن النفس لأمارة بالسوء إلى التأسيس الديني.

إن النفس إلهية خيرة عند سقراط... وإن الفضيلة في معرفتها والإصغاء

إلى أوامرها فهو نداء الآلهة والخير المطلق... فالأخلاق تقوم عند سقراط على معرفة النفس وإطاعة نداء الخير فيها.

أما عند الأبيقوريين وأبيقوراس فالفضيلة والحكمة والسعادة ثلاثة في واحد متحد كامن في الإصغاء إلى حاجات النفس وإشباع هواها بالإقبال على اللذائذ.

أما الفضائل الدينية في أخلاق الأديان فإنها تقوم أساساً على معرفة النفس الأمارة بالسوء ومخالفة هواها فإنها خاطئة مخطئة غارقة في الخطيئة والتأسيس الأخلاقي - بعد العهد الميثولوجي - يقوم على:

أولاً: على معرفة خير النفس الخيرة والإصغاء إلى ندائها عند سقراط.

ثانياً: على معرفة حاجة النفس وإشباع هواها عند أبيقوراس.

ثالثاً: على معرفة النفس الأمارة بالسوء ومخالفة هواها في الأديان.

وبعد، فمن هذا الذي قال مرة: إن كل إنسان يولد إما سقراطياً وإما أبيقورياً في الأخلاق؟

ومن ذاك الذي قال مرة: إن الإنسان كائن أخلاقي وإنه أبيقوري في السر وسقراطي في العلن.

قل، إذن، إن الإنسان حيوان اجتماعي ناطق أبيقوري في السر وسوفسطائي بالفعل وفي العمل، وسقراطي في الإدعاء وفي الكلام وفي العلن.

ذلك هو معنى إحداث الفلسفة العمياء في الطنجرة الاسطرلابية

«قضايا في فلسفة الفن والجمال»

يجمع نقاد ومؤرخو المسألة الفنية على: أن العلم تحليل وعلى أن الفن تركيب... ذلك بأن العلم يجزئ الموضوع وبأن الفن يختار ويجمع ويؤلف.

ويجمع نقاد الطريقة والمنهج وفلاسفة العلم والفن على: أن العلم يعمم متوخياً إرساء قواعد وصياغة قوانين تصدق على كل أفراد الجنس أو النوع أو الجنس والنوع معاً.

ويجمع هؤلاء النقاد والفلاسفة على: أن الفن لا يتوخى إلا الإبانة عن حالات التفرد الخاصة وحالات الانفراد بصفات تصدق على الجزء ولا تصدق على الكل، وتصدق على كل من أجزاء الكل ولا تصدق عليه كله.

وما حقيقة ذلك كله إلا أن العلم استقراء واستدلال وأن الفن تصور.

هذا وإن العلم أقرب إلى العمل... ذلك لأنه لا يتوخى إلا النافع... وإن الفن أقرب إلى اللعب... ذلك لأنه لا يتوخى إلا الجميل... أما أن لا يكون الجميل إلا نافعاً... وأن لا يكون النافع إلا ممتعاً... فذلك من الذي فيه نظر وفيه خلاف واختلاف ولا إجماع عليه.

لكن الثقافة علم وفن... ولا تزدهر الحضارة بعلم بلا فن... ولا تزدهر الحضارة بفن بلا علم... وأحسن ما تكون الثقافة بالتوسل بالعلم إلى الفن،

وبالتوسل إلى العيش الحسن بالفن: الذي ما هو إلا تصور لا يزدهر إلا على قدر ازدهار الاستقراء والاستدلال كما لا يزدهر الاستقراء والاستدلال إلا على قدر ازدهار التصور... والعلم أقرب من الفن إلى الوسائل... والفن أقرب من العلم إلى الغايات.

والفن تصور وتعبير عن التصور بالصور البصرية كما في الرسم والنحت والعمارة والفخار... وبالصور السمعية كما في الموسيقى والغناء... وبالصور اللفظية كما في القصيدة والقصة والرواية والمقالة... وبالصور الحركية كما في الرقص... وبالصور الشمية كما في تحليل وتركيب الروائح وصناعة العطور... وبالصور الذوقية كما في تحليل وتركيب الطعوم وصناعة المأكل والمشروبات.

وكلما انتشر الفن بين الناس بحكم من أحكام الضرورة والمنفعة والمتاجرة والتسعيرة والعرض والطلب صار الفن من الحرف ومن الصناعات الحرفية كما في انتشار الحلاقة والنجارة والخياطة وبناء الدور وتعبيد الطرق وتصميم الملابس والخ... والخ... وصناعة الملاعق والشوك والسكاكين والطناجر... والخ... والخ.

وإلا، فهل أتم وأكمل وأجمل من الطنجرة لو لم يكن في الدنيا سوى ثلاث طناجر.

كبرى بلا غطاء من نحت ليوناردو دافينشي... وصغرى بغطاء من نحت ميخائيل أنجياو... ومتوسطة بسبعة أغطية من نحت بيكاسو... لكن الطناجر كثير شائع مألوف... وإنها من الضروري النافع المفيد الذي تجري عليه الصناعة والتجارة والعرض والطلب والبيع والشراء والخ... والخ... والاستعمال والاستهلاك والخ... والخ.

والإنسان كائن جميل تفنيه التجارة إذا تداولته سلعة بالعرض وبالطلب وبالبيع وبالشراء وبالاستهلاك والخ... والخ... وبالاستعمال الذي يمسخ الإنسان سلعة وآلة وشيئاً يستعمل كما تستعمل الخيول والعربات والسفن

والأشرعة والمجاذيف والملاعق والشوك والسكاكين والدفاتر والمحابر والأقلام والجمال والحدوج والأفراس والطناجر التي لا أتم منها ولا أبهى ولا أجمل ولا أكمل لو لم يكن منها في الدنيا كلها سوى ثلاث طناجر:

طنجرة اسطرلابية كبرى من نحت ليونارد دافنشي في المتحف البريطاني.

طنجرة اسطرلابية متوسطة من نحت ميخائيل أنجيلو في متحف اللوفر.

طنجرة اسطرلابية صغرى من نحت بيكاسو في متحف برلين.

وأعطني حريتي أطلق يديا مرة واحدة في صفحة واحدة من مجلة أو من جريدة - من تلك التي تصدر في إحدى عواصم الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن - أقلب لك عالي فلسفة الفن والجمال سفلا، وأشغل الملأ الثقافي كله في عواصم الدنيا كلها بلا استثناء بالطنجرة الاسطرلابية والاسطرلاب الطنجري من دافنشي وانجيلو إلى بيكاسو ومور: بين النحت في الرخام الأزرق إلى النحت في الخشب من جذع التاريخ ومن جذع الزيتون.

أما والطنجرة هذه الطنجرة التي تستعمل في المطابخ، فإني لا أقدر حينئذ على إشغال أحد بها حتى لو اعطيتني حريتي وأطلقت يديا في جميع الكتب والجرائد والمجلات والمطابع والكواغد والأحبار مدة ألف ألف عام.

ذلك هو معنى قولك إن الإنسان كائن حي ناطق اجتماعي فني ينعشه التعامل ويزدهر بالمعاملة ويمسخه الاستعمال كلما استعملته وسيلة لقضاء حاجة مهما بلغ شرف القصد من الغايات في استعمال الإنسان الذي لا كرامة له إلا بجماله الفني الذي يشارك به الطنجرة الاسطرلابية والاسطرلاب الطنجري لا ينفعه الاستعمال الذي يشارك به الاسطرلابات التي في المراصد والطناجر التي على المواقد في مطابخ الطعام... وحاشاك... حاشاك... وأجارك الله... وإلا فكم ذا الذي يعصم الفنون

الجميلة من جور يدلهم فيعصف فيها سلعة متداولة في الأسواق تجارة وشيئاً وآلة وطنجرة في المطابخ لا طنجرة اسطرلابية كبرى بسبعة أغطية من إبداع رودان الذي استوحى عظمة الطنجرة الاسطرلابية الكبرى من دافنشي... واستوحى أبهة الطنجرة الاسطرلابية الوسطى من انجيلو... واستوحى أمجاد الصغير في الكبير والكبير في الصغير في الطنجرة الاسطرلابية البلورية من بيكاسو الذي لم يستخلص لنفسه النظر السوريوكيو بيكالي في رائعته (البلاج) إلا بتمثل رؤية فنية نقدية انقلابية كبرى ناجمة عن إعادة النظر في تصور الطنجرة الاسطرلابية التي هي رائعة ميخائيل أنجيلو الذي لم يكن ليتمتع بكل هذا المجد لولا انقلاب عالي غطاء طنجرته السوريو اسطرلابية - بعد التدحرج الفني الحالم - انقلاباً اسطرلابياً في الطنجرة الاسطرلابية... وبعد، فذلك هو معنى قولك أعطني حريتي أطلق يديا مرة واحدة في صفحة من مجلة أو جريدة - من تلكم اللواتي تنتشر في عواصم الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن - أحدث لك ضجة في فراغ وزوبعة في فنجان، وفلسفة في طنجرة وبيدراً من حبة كان قد نقرها الديك قبل الطوفان بألف عام.

هيجل وقضايا الفنون الجميلة

التعريف

يعرف هيجل الفن بأنه تكييف المادة وإعادة خلقها على نمط الفكر. أو إنه - خذ التعريف بصيغة أخرى - إعادة خلق المادي المحسوس على نمط الفكر المجرد... أو إنه - خذ تعريفاً شارحاً - إعادة تركيب المادي المحسوس وإعادة تشكيله على نمط تصور ذهني كلي يحتوي على أجزائه ومطلق من حدود النسب، ومجرد من المادة.

أو إنه - خذ الشرح من جوهر منطلق الفلسفة الهيجلية - إعادة تشكيل وتنظيم العالم على نمط الفكر... أو إنه - خذ التعريف هذه المرة من رأينا النقدي المقارن - إعادة تصوير المادة أرسطياً على نمط المثل الأفلاطونية... وذلك لأن هيجل ظل محكوماً في تعريفه الفنون الجميلة بأرسطو من جهة التكوين بالتصور والصيرورة والتغير بتعاقب الصور ضمن حدود أحكام العلل الأربع: مادية وصورية، وغائية، وفاعلة... وظل في هذا التعريف محكوماً بافلاطون من جهة أسبقية الكلي المطلق المجرد على الجزئي النسبي المحسوس عند أفلاطون، عازفين عن الاسمية المتطورة من أرسطو غير مستبقين لمذهبهم منه إلا تفسير التكون بالتصور بصورة وتفسير الصيرورة والتغيير والتبدل وإعادة تشكيل تنظيم المادة بتعاقب الصور.

فإن هيجل في مسألة تعريف الفن قد جمع بين أرسطو وأفلاطون جمعاً اسكولاستيكياً لم يأخذ فيه من أرسطو إلا ما يعينه على تقوية أفلاطون ضد أنماط النظر الحسي التجريبي في مذاهب الفلسفات ومناهج

العلوم... وإلا فماذا يجد القارئ حين نحتكم إليه في تعريف هيجل للفن غير إن المادة متصورة بصورة أرسطية على نمط الفكر الأفلاطوني الساكن في العالم الكلي المطلق المجرد فوق الجزئي النسبي المحسوس وإن على الإنسان - إذا شاء ارتقاء - أن يرقى بهذا المادي المحسوس بعيداً خلفه على نمط ذلك الروحاني العقلي المجرد من المادي المحسوس.

وتتفاوت الفنون في نظر هيجل بدرجة الرقي والقدرة على الارتقاء بالمادي المحسوس إلى مستوى الفكر فالتعبير عنه بالتصورية... ويرجع هيجل اختلاف الفنون في هذا المجال إلى اختلاف المادي المحسوس... ذلك لأن المادي المحسوس كثير مختلف بدرجة المرونة... وهذا يعني - بشرحنا - أن الارتقاء بالمادي المحسوس فإعادة تركيبه فتنظيمه وخلقه خلقاً جديداً محكوماً بمدى مرونة وملاءمة المادي المحسوس لقبول التصور على نمط الفكر... وجلي، واضح جداً أن الفكر هنا لم يعد فاعلاً مطلقاً من قيد المادي المحسوس... وإلا فمن يقدر على أن يشيد هرماً من الماء أو تمثالاً من الهواء أو قصيدة من الرمل والحصى ونديف القطن وحب الرمان.

ولماذا لا تستدعي الثور المجنح طرفاً شامخاً في المحاكمة؟

إنه يقول إنه ما كان ليكون لو لم يكن النحات: العلة الفاعلة... السبب الفاعل: ما به يكون الشيء... والفكرة: العلة الصورية... السبب المصور ما على صورته يكون الشيء وإنه يقول لك إنه ما كان لهذه الفكرة أن تكون في تصور النحات لو لم تكن في أعماق الإنسان رغبة عارمة نحو إعادة تكوين شخصه عقلاً وجسماً:

1. قوياً كالثور.. ولي جسم ثور.
2. خفيفاً كالطير.. ولي جناح طائر.
3. حكيماً كالإنسان.. ولي رأس إنسان.

وإن هذا التصور لم يكن ليجد سبيلاً إلى الوجود في فكر النحات لو لم يكن في الإنسان إحساس بالرضا من جهة العقل وإحساس بالسخط من

جهة الجسم... وإن الحاجة أم النحت... إنها حاجة الإنسان إلى تقوية الضعف وإلى الاستزادة من القوة مدفوعاً بحب الحياة والمحافظة على الحياة وتطوير سيادة الإنسان على هذي الأرض... و «وإني فن جميل» - يقول لك الثور المجنح - لأني أسد حاجة جميلة في بيئة حب الحياة والمحافظة عليها نحو سيادة الإنسان لتجميل هذي الأرض بالقوة وخفة الحركة وحكمة العقل: ثالوث لا بد منه في أبجدية حروف بناء التاريخ وإنشاء الحضارات... وإني ما كان لي أن أكون - يقول لك الثور المجنح لو لم تكن هنالك مادة ملائمة التي هي العلة المادية التي يكون منها الشيء في لغة أرسطو والتي هي المادي المحسوس في لغة هيجل هذا الذي لم يأت بجديد على ما جاء به أرسطو في جوهر الموضوع.

وإذا كان لي - أخيراً - أن أكون لو لم تكن الغاية موجودة: غاية الإنسان في القوة وخفة الحركة وحكمة العقل والتي هي العلة الغائية وما من أجله يكون الشيء في لغة أرسطو أو الصعود بالمادي المحسوس نحو الفكر في لغة هيجل وأفلاطون.

لكني، يقول لك الثور المجنح، أُفضل أن أظل - مثلما أنا في واقع الأمر - كائناً متطوراً معبراً عن حلم جميل، وإني لست وليد كرة ما بل إني وليد مجمل حركة التاريخ... وإني جميل لأني بناء أعين الإنسان في الصراع ضد الضعف في العقل والضعف في الجسم والثقل فيه... وإني بدأت في حاجة الإنسان، ثم أرتقي إلى رغبته، ومنها إلى تصوره... واختلطت فيه وامتزجت: حاجة ورغبة وتصوراً، وصرت ثوراً مجنحاً جميلاً... لم أبدأ بالفكر... ولم أولد فيه... بل انتهيت إليه موضوعاً للتفكير ومادة للتفلسف، ومضرباً للمثل حين يتحدث للناس في الفن الإنساني الحضاري الجميل: وإني القوة والرشاقة في العقل والجسم ضد الضعف وثقل الحركة مثلما (ملحمة كلكامش) للحياة وللخلود في الحياة ضد الموت: كلاماً حلقة راسخة رصينة في سلسلة صراع الإنسان ضد كوارث وأوبئة الطبيعة وشرور النفس وقبيح الفعل، وكلامنا مع الصحة والعافية وطول العمر... وكلامنا

رغبة عارمة مرتبطة - لا شك بهذا الارتباط - بنزعة حب الحياة وهي غريزة وفطرة قبل كل هذه الفلسفات وقبل كل هذا الفكر.

الموضوعي والذاتي

والفن، في رأي هيجل، نوعان:

فن موضوعي: وفيه (العمارة) و(النحت) و(الرسم)... وفن ذاتي: وفيه (الموسيقى) و(الشعر)

وهذا تصنيف لا سبيل إلى قبوله ما لم يتبين بعد المناقشة بالتحليل أن كل موضوعات العمارة والنحت والرسم متموضعة في مادي محسوس خارج الفكر، وأن كل موضوعات الموسيقى والشعر متموضعة في مجرد معقول داخل الفكر. وإلا، فعلى أي أساس أقام هيجل هذا التصنيف، وعلى أي أساس تقبله منه؟

ويقارن هيجل بين الفنون الموضوعية من جهة مدى مطابقة الصورة في المادة للفكرة في عالم العقل على نحو ما يلي:

▪ في العمارة: تظل الصورة في المادي المحسوس غير قادرة على الارتقاء إلى مستوى الفكرة... وذلك لأن المادي المحسوس هنا - في نظر هيجل - أقل مرونة من أن يقبل من الفنان صورة مطابقة للفكرة... وهذا يعني - في نظر هيجل - إن مواد البناء في العمارة من أشد المادي المحسوس عناداً وأقله مطاوعة لقبول صورة مطابقة للفكرة مطابقة تعبر بها عن الفكر من جهة وتحاكي بها الحياة.

▪ أما في النحت: فإن الصورة في المادي المحسوس ترقى بعض الرقي إلى مستوى الفكرة من جهة محاكاة الروح... وهذا يعني أن الصورة في النحت تقترب من الفكرة - في نظر هيجل - من جهة التعبير عن الحركة والنشاط الحياتي، التعبير الذي تعجز عنه الصورة في النحت.

▪ وأما في الرسم: فإن الصورة تعبر عن الحركة والنشاط الحياتي مثل

الصورة في النحت، لكن الصورة في الرسم تتخطى في مجال التعبير عن الفكرة حدود محاكاة النشاط الحياتي وإفصاح عن الروح بالحركة إلى التعبير عن النفس تعبيراً يعجز عنه النحت.

ولنا عند هذا الحد من الموضوع وقبل الانتقال مع هيجل إلى آرائه في الفن الذاتي ملاحظات في المحاكمة نسوقها معروضة للمناقشة على نحو ما يلي:

أولا: إن هيجل ظل في مسألة المفاضلة بالمقارنة والمقارنة بالمفاضلة بين العمارة والنحت والرسم، أرسطياً أفلاطونياً، مقياس الرقي عنده في الفن ساكن عنده في مدى مطابقة الصورة الأرسطية في المادة الصورة للفكرة الأفلاطونية على نحو ما يلي من تبسيطنا في الشرح... هناك المعمار والنحات والرسام في العمارة والنحت والرسم على التوالي وكل من هؤلاء يمثل علة فاعلة في اللغة الأرسطية.

وهناك مواد وأدوات وكلها مادي محسوس يلجأ إليها المعمار والنحات والرسام كل في مجال عمله... وكل هذه تمثل العلة المادية باللغة الأرسطية... وهناك الصورة التي يشيد على هيأتها المعمار هذا الصرح لا غيره وينحت النحات هذا التمثال لا سواه ويرسم الرسام هذا الرسم بالذات لا رسماً آخر... إنها العلة الصورية باللغة الأرسطية... وإنها ما على هيأته يكون الشيء نحو غاية هي العلة الغائية عند أرسطو والفكرة عند هيجل... أجل نلاحظ أن هيجل قد اتخذ الفكرة غاية لأنه قد أقام مفاضلة بين الفنون على المفاضلة بين قدرة الصور على التعبير عن الفكرة... وهكذا ظل هيجل محكوماً بأرسطو وبأفلاطون... وظل مقياس رقي الخلق الفني عنه مرتبطاً بمدى قدرة الصورة الأرسطية على بلوغ الفكرة الأفلاطونية.

ثانياً: إن هيجل اعتمد مدى تعبير الصورة عن الحركة والوعي في الفكرة أساساً لرقي الفن وعلى هذا الأساس اعتبر الرسم أرقى من النحت والنحت أرقى من العمارة التي هي عند هيجل أقل الفنون تقدماً في مجال

صعود الصورة في الإنجاز الفني إلى مستوى محاكاة الحركة والوعي.

ونلاحظ - ثالثاً - أن هيجل قد اعتمد تدرج الفنون في القدرة على التعبير عن الحركة والنشاط والحياة والوعي بالتعبير عن النفس أساساً للتدرج من الموضوعي إلى الذاتي فن الفن... وأنه باعتباره الانجازات الدرامية في الشعر قمة للتطور الفني يصير أرسطياً صادراً بفصاحة صريحة عن أرسطو الذي عرف العمل الدرامي تراجيديا وكوميديا قمة في العمل الأدبي معرفاً النصوص الدرامية بأنها محاكاة للفعل... محاكاة لفعل الفاعل الحي المتحرك المفعم بالنشاط الحياتي والوعي والإفصاح عن النفس وعن حيثية ذات حية فاعلة.

وينتقل هيجل من عند هذه التخوم الأرسطية الأفلاطونية إلى الفن الذاتي وفيه الموسيقى والشعر حيث يبدأ عنده الفن الذاتي بالموسيقى التي هي عنده تعبير عن انفعالات النفس بهيأة غير محدودة بنهايات... إن الصوت في الأداء الموسيقي غير محدود بنهايات يضم انفعالاً نعبر عنه... ذلك لأن الصوت مثل الانفعال كلاهِما غامض بشيء من تهويم المبهم... أما في الشعر فإن الصوت محدود بنهايات تجعل منه عبارة معبرة فصيحة محكومة بقواعد اللغة والمنطق... وإن الشعر عند هيجل بقيامه على اللغة مادة للإنشاء التي يستطيع أن يقوم بأداء المعمار والنحات والرسام والموسيقي بل المؤرخ بالرواية بحكم قدرة الشاعر على التصوير بصورة ترقى - عند هيجل - إلى مستوى الفكرة.

والشعر عند هيجل فن متكامل التقدم... بل الشعر عنده أعلى الفنون... ولنا على مجمل آراء هيجل في المفاضلة بين الفنون ملاحظات.

منها لو أن هيجل اعتبر - مثلما نعتبر - الفكر وصفاً لا حقاً لرد فعل لاتفق معنا على أن أول كوخ أشاده الإنسان أرقى في مجال تعبير الصورة عن الفكرة من كل ملحمة جلجامش ومن كل الألياذة والأوديسة ومن كل موسيقى بيتهوفن وموزارت وباخ.

هذا من جهة... أما من الجهة الأخرى فالثور المجنح يقول لك إنه ارتقى بصورته إلى الفكرة التي عبر عنها أعلى مما ارتقى أي خلق في الرسم أو الموسيقى أو الشعر... أما أن يضع هيجل النحت في مرتبة متأخرة عن الشعر والموسيقى والرسم، فهذا ما لا نجد له تفسيراً إلا باستئناس هيجل برأيه الذاهب إلى أن التعبير باللغة أعلى مراحل التعبير في الفن... وهذا خلاصة ما أراد أن يقوله هيجل بشأن المفاضلة بين الفنون فقاله لنقبله منه بتعديل منا... وإلا فكيف يستقيم الأمر؟

التعديل: إن اللغة أدق وسائل التعبير لكنها لا يمكن أن تكون الوسيلة لإنشاء أعلى الفنون.

أدوار ومراحل الفنون الجميلة في التاريخ

وكما ظل هيجل أفلاطونياً أرسطياً جامعاً بين أرسطو وأفلاطون جمع توفيقي سكولاستيكي في تعريف الفن وتصنيف الفنون، ظل ستاتيكياً غير تطوري في تشخيصه لأدوار الفنون في التاريخ ومراحلها الحضارية فيه.

مرت الفنون الجميلة كلها - يقول لك هيجل - في ثلاث مراحل هي:

أولا: مرحلة الفنون الشرقية عراقية ومصرية.

ثانياً: مرحلة الفنون الإغريقية.

ثالثاً: مرحلة الفنون المسيحية: معتبراً الفن المسيحي قمة لمجمل التطور في الفن موضوعاً، وفكرة وصورة، وأسلوب أداء في التعبير على نحو ما يلي من التشخيص المقارن ومقارنة المفاضلة.

1. الفن الشرقي: إيحائي يوحي، ورمزي يرمز: يوحي بأفكار، ويرمز إلى أحوال وحالات لا متناهية: يتوخى اللا نهاية واللا نهائي واللا محدود.. وإن هذا الفن لا يهتم بإتقان الصورة الخارجية ولا يتفنن بإظهار الجمال الخارجي.. وإنه فن لا يفني الفكرة كلها بتصويرها كلها

في الموضوع.. وإنه لا يجسد الفكرة كلها في المادي المحسوس، ولا يطوع المادي المحسوس تطويعاً كاملا يرقى به إلى حالة قبول صورة يرقى بها المادي المحسوس إلى الفكرة ارتقاء مطابقة للفكر.

2. الفن الإغريقي: يعتمد الأداء المباشر في التعبير عن الفكرة كلها لا يبقي منها شيئاً خارج الصورة التي يصور بها المادي المحسوس.. إنه يصعد بكل المادي المحسوس إلى سموات الروحاني المعقول فيفني الروح كلها في المادة، ويطور صوراً متقنة وجمالاً ظاهراً محسوساً على حساب تلاشي واضمحلال الفكرة في الصورة التي تصور كل الفكرة محدودة متناهية محسوسة مدركة على وجه واحد لا يحتمل تأويلاً ولا يلهم مستوحياً بأمر من أمور التطلع والتوقع والحلم.. إنه ينقل إليك كل الصورة عن كل الفكرة.

3. الفن المسيحي: يحل الجمال الروحي محل الجمال الحسي المحسوس، ويرقى بالنظر الجمالي من الدنيوي المحسوس إلى الإلهي في عالم الملكوت.. لكن المسافة تظل بعيدة مستحيلة العبور بين الصورة التي يصوغها الفنان من جهة، والأحوال الإلهية الروحانية من جهة الفكر.. وإن هذه المسافة من البعد بما لا يستطيع فنان أن يقطعه مها بلغ من القدرة الفنية والاقتدار على تطويع المادي المحسوس للمعنوي الإلهي المعقول.. ولذلك نجد أن الفنان المسيحي دائم الإحساس بضآلة إنجازه الفني إزاء الغرض المقصود من الفن الذي هو عنده محاولة تجسيد الأحوال الإلهية في المادي المحسوس.. وهكذا، ولهذه الأسباب، يستهين الفنان المسيحي بالصورة، لا يهتم بها عند حد إدراكه، إنه عاجز لا يستطيع أن يرقى - بواسطتها - بالمادي إلى مستوى الإلهي.. لكن هذا اليأس من احتمال محاكاة الواقعي المادي المحسوس للكلي المطلق المجرد يأس أفلاطوني صرف لم يزد عليه هيجل سوى أنه اعتبر الإحساس بهذا اليأس امتيازاً للفنون المسيحية.. وهذا الامتياز معتبط.. وذلك لأن هيجل اعتبر الاستهانة بالصورة علامة رقي الفن في الفن المسيحي أكثر الفنون اهتماماً بالصورة وأدقها في إتقان التصوير وتجسيد الفكرة كل الفكرة في الصورة.. ولا تضرب مثلاً إلا صورة العشاء

الرباني الأخير لمايكل أنجيلو.. أضف على هذا أن الفنون المسيحية أكثر افناء للفكرة في المادي المحسوس من الفنون الإغريقية.. ولا تضرب مثلاً إلا بالسيد المسيح مصلوباً من جهة الفن المسيحي، وبفينوس من جهة الفن الإغريقي.. أم إن هيجل يعتبر الإفناء علامة رقي في الفن المسيحي وعلامة ركود في فنون الإغريق؟؟

ولكي لا يظل من المسألة في النفس شيء يجب أن لا نستثني هيجل هذا من نزعة التفوق والغطرسة الأوربية التي ساقته - ضد كل قواعد المنهج عنده - إلى اعتبار آخر ما انتهت إليه أوربا من فنون أرقى الفنون في سلم التطور... وإلا فالفن الشرقي: عراقياً ومصرياً: رسماً ونحتاً وشعراً وملحمة وعمراناً - ضمن حدود مقاييس الفن الرمزي الموحي أرقى الفنون علواً من وجهة نظر فلسفية قائمة على إعادة تركيب الخارجي المادي المحسوس نحو إعادة التوازن إلى الإنسان في ذاته، فإعادة هذا التوازن بينه وبين الطبيعة: جامدة، وحية، وعاقلة.

ويظل التشخيص الهيجلي تشخيصاً ستاتيكياً فيه ما لم يتفق معنا الهيجليون على أن الفن رد فعل إنساني جميل يقوم به الإنسان مدفوعاً بحب الحياة والمحافظة على البقاء بتطوير وسائل الأمن والأمان بالعدل وبالقوة: في الفعل وفي الجسم... وبإعادة التوازن إلى الحياة بتقوية الإنسان من الداخل في الداخل إزاء طوارئ ومتبدلات الخارج... وإن الفن رد فعل تطوري محكوم بالبيئة وبالمرحلة التاريخية وبأسلوب وطريقة الكسب والعيش في تلك المرحلة من التاريخ.

أما أن يكون الفن إرادة لتصوير المادي المحسوس تصويراً أرسطياً على نمط المثل الأفلاطونية خارج دائرة تطور الإنسان، فهذا ما لا يقبله من هيجل إلا الهيجليون لم تبق من مدائنهم مدينة على خارطة الفن والفلسفة والأدب غير مدينة أفلاطون.

لماذا نحن ضد هربرت سبنسر

يجمع مؤرخو الفلسفة ونقادها على أن هربرت سبنسر فيلسوف تجميع جمع أمشاج فلسفته من آخرين، وإنه لم يأت بجديد أصيل مبتكر.

ولا يذكره أحد في الثقافة العامة بشيء... أما في الثقافة العربية فنحن لم نر بعد اسمه في جريدة أو مجلة، ولم نسمع له ذكراً في حديث من الأحاديث التي تدور مبرمجة للتثقيف العام من الراديو ومن التلفزيون وفي الندوات الثقافية، لا تذكر أن أحداً ذكره في حديث من الأحاديث التي تدور غير مبرمجة بين المثقفين على سبيل المسامرة إذا جاء المساء بالثرثرة الكسولة بلا مسؤولية حول الآداب والعلوم والفنون والفلسفات، بل إن اسمه لم يرد في أي من كتب الثقافة العامة والتثقيف الإجمالي المبرمج على سبيل المسح الثقافي العام وتقديم ثقافة شعبية للجمهور عامة بلا تخصيص... وانتظرنا - بحكم نزعتنا الاختبارية التجريبية في الرصد - أن يرد اسمه في الأحاديث التي بدأت تدور عندنا بين المثقفين حول موجة (البنيوية) لكنه لم يرد معها، ولم يذكره بها أحد، بالرغم من أنه - ضمن حدود الضوابط المنهجية والانضباط الأكاديمي الرصين - أساسها المنهجي الصريح... ولكن كانت هذه الغفلة عن ذكر هربرت سبنسر غير مبررة نقدياً فإن لها ما يفسرها... ومن التفسير أن (البنيويين) قد ابتلعوه في باريس ولم يظهروا منه شيئاً... هذا من جهة غفلة قادة الموجة البنيوية عن ذكر اسمه أساساً لهم في توطيد أركان البناء الفلسفي الشامل المتكامل في الإنسان وحول وإزاء كل قضاياه وعلاقاته: متوجهين إليه بالمتداخل المتجسم الموحد المتحد من جميع فروع المعرفة ذات العلاقة بالإنسان فرداً

ومجتمعاً وبقضاياه، كل قضاياه، موضوعاً لفلاسفة البنيوية التي تنحو - دعنا نضرب للبنيويين مثلاً - منحى الجمع والتأليف والتوفيق بين كل المفاتيح المختلفة لفتح أقفالها واحداً بعد واحد والإنسان صندوق... وهذا منحى توفيقي نادى به سبنسر صراحة وعلانية في الطريقة، وفي المنهج، وفي التخطيط للتربية الفلسفية... ولم يأت البنيويون المعاصرون بجديد لا في طريقة البحث ولا في منهج الدرس، ولا في التوجيه التربوي الشامل فلسفياً... بل إنهم صدروا بكل هذه عن هربرت سبنسر وابتلعوه بعد ذلك، لم يظهروا منه أثراً... أما من جهة أحاديث المثقفين عندنا فإنها لا تغفل عن ذكر هربرت سبنسر في معرض الحديث عن البنيوية عمداً بالتخطيط المبرمج... إنما هم يعرضون عن ذكره لأن أحاديث الثقافة العامة تدول عندنا بين المثقفين من النهايات بلا بداية، ومن الهوامش بلا حاشية، ومن الأطراف بعيداً عن المركز، ومن النظرة على السطح بعيداً عن التأصيل في الجذور... ولهذا - لا شك - كل حسنات الثقة والاعتداد بالنفس وبالمعلومات من جهة المثقف المتحدث، وكل سيئات الضحالة من جهة ضرورة افتراض حد أدنى من العمق والتأصيل في الحديث الثقافي العام..

في الدرس الجامعي:

هذا، لا نقف عند هربرت سبنسر في الدرس الفلسفي إلا وقفة المتعجل... وقد لا نمر به، بل إنه قد لا يجيء إلا هامشياً في المنهج... بل إن المنهج قد لا يذكره، بل إني قضيت أربع سنوات تلميذاً في كلية لجامعة بغداد ولم أسمع أحداً من منتسبي الكلية يذكر اسمه بما في المنتسبين أساتذة الفلسفة الحديثة وأساتذة علم الاجتماع... هذا وليس حظ هربرت سبنسر في البحث الأكاديمي عندنا بأحسن من حظه عندنا في الدرس الفلسفي وفي الحديث الثقافي العام.

المشروع:

ونرى - غير خارجين على إجماع مؤرخي الفلسفة ونقادها بشأن تشخيص هربرت سبنسر بين الجمع والتوفيق من جهة، وأصالة التجديد من جهة أخرى - إنه أحد أحسن المداخل إلى الدرس الفلسفي الحديث وذلك لأنه فيلسوف ترفضه كل الفلسفات المادية الطبيعية لأنه ذهب مذهب التنبؤ بضرورة وقوف انتهاء مجمل التطور الكوني عند حد وانتهائه إلى حالة الفناء في السديم العماء الذي بدأ منه التكوين، وترفضه الفلسفات المثالية العقلية لأنه رفض فكرة المطلق جملة وتفصيلا ومن الأساس، وقال بالنسبية، وأكد أن مجمل التكوين الفلسفي محض تراكم تطوري لمجمل ردود الأفعال الإنسانية حول محور حب الحياة والمحافظة على البقاء، ولأنه تنبأ بحتمية تطور الأخلاق نحو تلاشي فكرة الواجب الخلقي عند حد انتهاء التطور الخلقي إلى الفعل الخلقي بحكم تحصيل الحاصل الراهن حيث لا يستطيع الإنسان أن يكون إلا خلقياً... إنها حالة الامتزاج التام بين حب الحياة والفعل الخلقي امتزاجاً تاماً بلا انفكاك.

أجل إن هربرت سبنسر يقف وضعاً من أوضاع الرفض والقبول والتوفيق بين الفلسفات المادية الطبيعية من جهة والفلسفات العقلية المثالية من جهة أخرى: إنه يقف مع السفسطائيين في النسبية ضد المطلق عند سقراط... إنه بهذا الموقف يقف ناقداً عند حد أول افتراق تمذهبي مبرمج منهجياً في التاريخ حول طبيعة الإنسان وأصل الأخلاق: إنه مفترق الطرق المذهبي حول الرجل الفاضل الذي هو الرجل الخير الذي يكتشف الخير في نفسه عند سقراط والذي هو الرجل الناجح الذي يكتسب وسائل وسبل النجاح عند السوفسطائيين والذي هو كائن متطور يتطور مع الفضائل والخيرات حتى حد تكامل الأخلاق فيه طبعاً حول محور طبع حب الحياة والتماسك من الداخل في الداخل إزاء متغيرات ومتبدلات البيئة عند هربرت سبنسر.

هذا وإن هربرت سبنسر يقف مع أرسطو ضد أفلاطون، ذلك لأنه

يرفض من أفلاطون فكرة أسبقية الكلي المطلق المجرد على الجزئي النسبي المحسوس... وهذا موقف أرسطي معروف بتأكيد أرسطو أن الفكر الكلي المطلق المجرد يتكون من الفكر اكتساباً بالتجريب وبالتجريد العقلي من الجزئي النسبي المحسوس.

لكن هربرت سبنسر يقف مع جون لوك ضد أرسطو وضد أفلاطون... وذلك لأنه يؤيد جون لوك في رفض فكرة الجوهر الأرسطية ويؤيده في رفض فكرة فطرية الأفكار الأفلاطونية.

أما في نظرية المعرفة فإنه حسي تجريبي يشايع جون لوك وديفيد هيوم وجون ستيوارت مل ضد ديكارت والديكارتيين وضد إيمانويل كانت وهيجل وكل غلاة المثاليين من الألمان بين الكنتية والهيجلية في الحوار الفلسفي الدائم الإقامة بين المتحاورين.

إن هربرت سبنسر فيلسوف تستطيع - إذا شئت - أن تدير حوله كل قضايا التمذهب الفلسفي الكبرى: مقارنة، واتفاقاً، واختلافاً، وتضاداً، وتوفيقاً، وتأصيلاً في مجال رد الفروع إلى الأصول.

إنه الفيلسوف الذي:

أولاً: يرفضه الوجوديون لأنه يقيم الفلسفة نظاماً فكرياً، ولأنهم يقفون ضد التنظيم المنطقي، وضد البناء العقلي، فهذا بناء، في الوجودية مرفوض.

ثانياً: يرفضه المناطقة الوضعيون لأنه يصدر من العلم التجريبي نحو الفلسفة ويتخذ من الإنسان وعلاقاته فرداً ومجتمعاً موضوعاً أساساً للفلسفة ولأنهم لا يعتمدون غير التحليل اللغوي المنطقي موضوعاً للفلسفة وللإصلاح المنهجي منطلقين من ثقة بقدرة المحاكمة المنطقية على الإصلاح والتنظيم.

ثالثاً: ويرفضه الذرائعيون، وذلك لأنه وإن كان شبيهاً مثلهم عائداً

معهم إلى السوفسطائيين فإنه لم يبرر الوسائل بالغايات مثلهم في عودتهم إلى السوفسطائيين.

رابعاً: يبتلعه البنيويون ولا يظهرون منه شيئاً... ويعتاش عليه آخرون خفية وينتعشون ومنهم المؤرخ (توينبي) في فكرته (التحدي) التي هي ليست إلا تسطيحاً لفكرة (رد الفعل) الذائعة الصيت عند الجميع ولفكرة (التلاؤم) مع البيئة ولفكرة هربرت سبنسر الذاهبة إلى أن البقاء الاجتماعي متعلق تاريخياً في الثقافة وفي الحضارة وفي المدنية بالقدرة على التكيف بقوة تماسك من الداخل في الداخل إزاء متغيرات طوارئ البيئة من الخارج.

خامساً: نرى أنه من أحسن ما يكون الفلاسفة مدخلاً إلى الدرس الفلسفي منطلقين من رأيه في التطور: حياتياً في الطبيعة وإرادياً في التاريخ: حيث التطور عنده محكوم بالنمو والانتشار من البسيط المتجانس إلى المركب المعقد الكثير الوظائف والملكات والحاجات.

وبعد ذلك أن تعيد السؤال: لماذا نحن ضد هربرت سبنسر؟ ولك أن تكون معه، ولك أن تكون ضده ولك أن تظل حيث أنت على التل متفرجاً على بساتين الفلسفة.

أما نحن فليس لنا في الأمر كله غير أن قدمنا تأطيراً عاماً لخطة درس فلسفي.

ولك - إذا كان الدرس فلسفة تاريخ - أن تترك هذه الخطة كلها مستعيضاً عنها بسؤال بسيط هو: ما مدى أصالة (توينبي) في فكرته القائمة على (التحدي) وهل نستطيع إرجاعها إلى هربرت سبنسر في تفسير أدوار الحضارة وتطور المجتمعات في التاريخ؟

ولك - إذا شئت - أن ترجع إلى توماس هوبز أساساً لهربرت سبنسر قبل أن ترجع إلى هذا أساساً لتوينبي وفكرة التحدي وقيام وسقوط الحضارات وذلك لأن توماس هوبز أول من أحدث انقلاباً جذرياً في ميدان النظر إلى أصل طبع الإنسان وأساس دوافعه وغاياته وتوجهاته الحضارية بين الدوافع والغايات.

التطرف سيد المواقف في الأخلاق

أتذكر أيام طفولتك؟

ألا تذكر منها شيئاً؟

ألا تذكر منها ميلك إلى حصر نفسك في الزوايا زوايا الغرفات وإحاطة نفسك بالوسائد وبالشبيه بالوسائد مما قد تتخذ منه سوراً يحيطك وتتحصن به؟

ألا تذكر شيئاً عن هذا؟ راقب - إذن - سلوك الأطفال ولاحظ ميلهم إلى حصر أنفسهم تجد أنهم جميعاً - بلا استثناء - يميلون في مرحلة من مراحل طفولتهم وفي طور من أطوار لعبهم إلى أن يحيطوا أنفسهم بسور يحصرون ويحاصرون أنفسهم داخله وسط التحصين.

فماذا هذا الميل؟

إنك قد لا ترى فيه إلا ميلاً إلى الاتكاء على غيرك... وهذا صحيح.

وإنك قد لا ترى فيه إلا نفوراً من الأطراف السائبة... وهذا صحيح.

وقد لا يرى آخرون في هذا إلا أنه ميل إلى الإحساس بنهايات وحدود... وهذا صحيح.

وقد لا يرى آخرون - غير هؤلاء الآخرين - في الأمر، إلا أنهم الأطفال الذي أمرهم أمر عجاب، وإن من عجيب عبثهم في اللعب ولعبهم في العبث أنهم لا يرتاحون أحياناً ولا يهدأ لهم روع إلا بإحاطة أنفسهم بحدود تحيط بهم ويجدون في الأمر متعة ولذة وأنساً واستئناساً وراحة وأمناً وسط التحصين.

وقد يستخف بعض الناس بهذا الذي يرونه من أمر الأطفال فلا يرون فيه إلا لعباً خفيفاً وعبثاً هيناً من لعب وعبث الأطفال: غافلين في غمرة هذا الاستخفاف عن حقائق صارخة منها أن الأطفال لم يفعلوا في عبثهم ولعبهم هذا إلا الذي فعله الجدود داخل الكهوف فداخل الأكواخ فداخل الدور فداخل الحصون والقلاع والقصور... وإلا فما أصل اهتمام الإنسان الأول بالكهوف والمغارات إذا لم يكن على أنها حدود تحيط بالهارعين إليها اللائذين بها فيحسون بالأمن والراحة والأمان: لا خوف عليهم ولا يخافون المطر إذا انهمر ولا الذئب إذا جاع ولا السيل إذا بلغ الزبى ولا عداء عاد يهدد أمن الآمنين بسلب ونهب أو بقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق: ذلك لأن الإنسان محاط بحدود الكهف من كل الجهات؟

هناك إذن، ترابط محتوم وارتباط لا بد منه وتلازم لزوم اللازم بين الإحساس بالأمن وبالأمان وبالحماية من جهة، والإحساس بالحدود المحيطة من جهة المغارات والكهوف.

أجل، إنها جبلة الإنسان وفطرته الأولى التي فطر عليها بعد أول التجريب وبعد أول المعاناة والتحدي والعناء... وإلا فما السبيل إلى الخلاص من خطر العراء إن لم يكن في اللجوء إلى الكهوف والمغارات تحيطنا ونحس فيها أنها تحيطنا بحدود.

واصرف حدود الكهف والمغارة إلى حدود كوخك إن كنت من سكان الأكواخ واصرفها إلى بيتك إن كنت من سكان الدور واصرفها إلى قصرك إن كنت من سكان القصور واصرفها إلى كل القلاع والتحصينات والحصون واصرفها إلى ما يشيد الأطفال من تحصينات يحيطون أنفسهم وسطها ويشيدون حولهم الحدود والسدود والحصون.

ومن المأثور الثقافي عندنا أن الذئب يأخذ من الغنم قاصيها.

ومن المعتقد الديني المقدس أنه تعالى ينقص الأرض من أطرافها.

ومن المألوف الجمالي عندنا في المأثور الفني أن عين القلادة لا

تكون إلا أحسن ما فيها ولا تكون إلا في الوسط.

ومن آداب السلوك أن يجلس الرئيس صدراً في الوسط وأن يقوم إذا وقف صدراً في الوسط... وهذه آداب تحكم في كل العالم آداب المائدة وآداب البرلمانات والمهرجانات والمجالس جميعاً وكل اجتماع يكون لبني آدم فيه رأس لا يكون إلا في الوسط.

وحدث عن التوسط والوسط أكثر من حديثك عن البحر ولا حرج.

فالوسط يعني أنك وسط آخرين والآخرون هم الجنة والطرف لا يعني إلا أنك أول الناس عرضة للخطر المداهم من خارجه أو أنك إما عند باب الكهف أو أنك ملاصقاً قعره الأمر الذي لا يعني إلا أنك آخر الناس خلاصاً إذا كانت النجاة في الخروج منه.

هذا وطرفا الكهف من على اليمين وعلى اليسار لا يعنيان إلا أنك في أحسن الأماكن توسطاً التي من على حسنها لا على حسن غيرها قال الشاعر: «كلا طرفي قصد الأمور ذميم».

وقال أرسطو: إن الفضيلة وسط بين طرفين مرذولين هما الإفراط والتفريط... الكلام الذي لا نجد ما يشرحه بكامل البلاغة إلا بتلاوة الآية: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط» لكن الآية القرآنية لم تعظ إلا الاعتدال في أمور قد يسرف فيها الإنسان فيصيبه الأذى من التفريط أو الإفراط... وهذا حسن وحسنة من وصايا الرب للعباد؟

أما أن يجيء أرسطوطاليس فيجعل من الوسط والتوسط وضرورة لزومهما والالتزام بحدودهما قانوناً أخلاقياً لرسم حدود الفضيلة فهذا ما لا نقبله - إذا كان من الواجب علينا أن نقبله - إلا بعد أن يتبين لنا الحق بأي من موازيين منطق الأخلاق والجمال والعدل ومنطق أحكام العقل.

التحليل الأول: ما معنى قول أرسطوطاليس إن الفضيلة وسط بين طرفين مرذولين أحدهما الإفراط وثانيهما التفريط وبينهما الوسط الذهبي الذي علينا أن نتوسط الأمر عنده فلا نميل إلى الإفراط ولا نميل إلى التفريط.

إنه يقول لك أرسطوطاليس ويضرب لك مثلاً في الشرح والتحليل إن الكرم فضيلة ذلك لأنه وسط بين طرفين مرذولين أحدهما البخل وثانيهما الإسراف... وإن الشجاعة فضيلة ذلك لأنها وسط ذهبي فاضل بين رذيلتي التهور والجبن على طرفي الوسط الذهبي الفاصل.

النقد الأول: ما رأي أرسطوطاليس - وكل الناس أرسطوطاليون على نحو من الأنحاء - إذا استقر منا الرأي على أن الكرم لا يصير فضيلة بتوسطه بين الإسراف والتقتير وأن الشجاعة لا تصير فضيلة بناء على أنها وسط بين الاندفاع الأهوج والجبن... بل إن الكرم لا يكون فضيلة إلا لأنه فضيلة... وإن الشجاعة لا تصير شجاعة إلا لأنها فضيلة؟؟ وما قول الأرسطوطاليين - وكلنا أرسطوطاليون بمقدار من مقادير وأقدار الثقافة - إذا قلنا إن الكرم لا يكون كرماً إلا على أنه كرم وإن الشجاعة لا تكون شجاعة إلا على أنها شجاعة: لا على أن الشجاعة وسط بين التهور والجبن، ولا على أن الكرم وسط بين الإسراف والبخل.

التحليل الثاني: هذا وإن قول أرسطوطاليس إن الفضيلة وسط بين طرفين مرذولين ينصرف إلى أن كل فضيلة من الفضائل لا تكون فضيلة إلا بتوسطها توسطاً ذهبياً في الوسط الذهبي الأرسطوطاليسي بين إفراط وتفريط.

النقد الثاني: وهذا ما لا يقبله العقل الأخلاقي إلا إذا أمده منطق الطبيعة السيكولوجية بطرفين مرذولين يتوسطهما الصدق وطرفين مرذولين يتوسطهما الإخلاص وطرفين مرذولين يتوسطهما الوفاء.

التطرف سيد المواقف: هذا والتطرف - عندنا - سيد المواقف كلها في الصدق وأن تصدق الصدق كله وفي الوفاء وأن تفي الوفاء كله وفي الإخلاص وأن تخلص الإخلاص كله وفي الحب وأن تحب الحب كله.

وإلا صرنا صيارفة في الصدق وفي الوفاء وفي الإخلاص وفي الحب وصرنا صيارفة ضد كل طبائع الفضيلة والعدل والجمال ومنطق الأخلاق.

من لا نهائية تاريخ الطبيعة
إلى لا نهائية طبيعة التاريخ

▪ هل تعرفون البطيخ الذي لونه أصفر وطعمه لذيذ وله قشر يفصل بين الباطن الداخل والظاهر الخارج؟

▪ هل تعرفون الجمل الذي هو سفينة الصحراء ولبعض أنواعه سنام واحد ولبعض أنواعه الأخرى سنامان، وله جلد يفصل بين الباطن الداخل والظاهر الخارج؟

▪ هل تعرفون الأرض والشمس والكواكب والأقمار والنجوم وكلها أجرام سماوية ولكل منها سطح يفصل بين الباطن الداخل والظاهر الخارج كما تفصل القشور بين الداخل والخارج في كل من الجوز واللوز والفستق والبندق والليمون والبرتقال والنارنج والموز والرمان والخوخ والمشمش والبلوط والخ... الخ وكما لكل شيء في هذا الكون الذي هو الطبيعة وفي هذه الطبيعة التي هي الكون باطن داخل وظاهر خارج وجدار جلد قشر سطح يفصل بين الباطن الداخل والظاهر الخارج كالذي يفصل بين داخل وخارج الخلية التي هي الوحدة البايولوجية الصغرى في جميع الكائنات الحية وكالذي يفصل بين داخل وخارج الذرة التي هي الوحدة التكوينية الصغرى لجميع الكائنات جماداً ونباتاً وحيواناً.

▪ لكن ليس للطبيعة كلها مجتمعة جدار جلد قشر سطح يفصل بين الباطن الداخل والظاهر الخارج.

▪ وليس للطبيعة بعد وقبل كما ليس للتاريخ قبل وبعد... ولو كان

للتاريخ بعد لصح أن يكون له قبل وليس للتاريخ قبل ولو كان له قبل لصح أن يكون له بعد... أما أن يتوهم القوم بأن التاريخ له قبل فهذا وهم ناجم عن الخلط الخاطئ بين الكتابة والتاريخ فنسبة بداية التاريخ إلى بداية الكتابة والتدوين وهذا من الخطأ الشنيع ذلك لأن أمر بداية الكتابة شيء وأمر التاريخ الذي ليس له بداية ونهاية شيء آخر... ولو كان للتاريخ حقيقة بداية وقبل لصح أن تكون له نهاية وبعد ولصح الحديث عن ما بعد التاريخ.

- والحديث عن ما بعد الطبيعة كالحديث عن ما قبل التاريخ باطل من الأباطيل.

- فقل منذ هذا اليوم ما قبل الكتابة والتدوين لا تقل ما قبل التاريخ.

- وقل منذ هذا اليوم ما بعد الفلسفة لا تقل ما بعد الطبيعة.

- ولو كان للطبيعة حقيقة بعد لكان لها قبل.

- ولو كان للتاريخ حقيقة قبل لكان له بعد... ولكل شيء في التاريخ وفي الطبيعة وفي الكون بداية ونهاية وقبل وبعد... لكن ليس للتاريخ قبل... ولو كان للتاريخ حقيقة قبل لصح أن يكون له بعد ولصح الحديث عن ما قبل التاريخ وعن ما بعده كما يصح الحديث مثلاً عن ما قبل وما بعد كل من الأدوار والحوادث والثورات والخ... والخ... التي في التاريخ كالدور الحجري والدور البرونزي والدور الحديدي والأدوار الجليدية والطوفان والعصور القديمة والعصور الوسطى والعصور الحديثة والخ... الخ... والثورة الصناعية والإصلاح الديني والإصلاح الديمقراطي والثورة الفلكية والثورة الفضائية والثورة البايولوجية والخ... الخ... وعصر التنوير وعصر النقد والخ... الخ... وإلى آخر ما قد ترصد من أدوار التاريخ وعهوده وثوراته وحوادثه.

- وقل ما قبل الأسطورة وما بعدها.

- وقل ما قبل الفلسفة وما بعدها.

■ وقل ما قبل الدين وما بعده.

■ وقل ما قبل العلم وما بعده.

■ وقل ما قبل الكتابة وما بعدها.

■ لكن لا تقل ما قبل التاريخ وما بعده.

■ ولا تقل ما قبل الطبيعة وما بعدها.

■ ولا تقل ما قبل الكون وما بعده.

■ ولا تقل ما قبل الوجود وما بعده.

■ ذلك لأن الكون والطبيعة والوجود والتاريخ بمعنى واحد من جهة أن كل منها يتصف بالوحدة.

■ فالطبيعة واحدة... لا طبيعتان.

■ والكون واحد... لا كونان.

■ والوجود واحد... لا وجودان.

■ والتاريخ واحد لا تاريخان.

■ والطبيعة موجودة ولا يمكن أن تكون غير موجودة... واللا طبيعة غير موجودة ولا يمكن أن تكون موجودة.

■ والكون موجود ولا يمكن أن يكون غير موجود واللا كون غير موجود ولا يمكن أن يكون موجوداً.

■ والوجود موجود ولا يمكن أن يكون غير موجود، واللا وجود غير موجود ولا يمكن أن يكون موجوداً.

■ والتاريخ موجود ولا يمكن أن يكون غير موجود، واللا تاريخ غير موجود ولا يمكن أن يكون موجوداً.

■ والميتافيزيقا - دعنا ندخل جوهر الموضوع - كالميتا وجود

وكالميتا كون وكالميتا تاريخ: تسمية لما لا وجود له ما دام، الحاس العاقل، والمحسوس المعقول والوسط الذي بينهما، ثلاثة أمور طبيعية من الطبيعة وإلى الطبيعة وفي الطبيعة وفي حركة طبيعية دائمة وتغير مستمر.

- واذكر هيراقليطس.
- واذكر بارمنيدس.
- واذكر بروتاغوراس.
- واذكر كوبرنيكوس.

- واذكر هيراقليطس بالحركة الدائمة وبالتغير المستمر وبأن كل شيء يتغير إلا قانون التغير وبأنك لا تنزل النهر مرتين.

- وأذكر بارمنيدس بأن الوجود موجود ولا يمكن أن يكون غير موجود وبأن اللا وجود غير موجود ولا يمكن أن يكون موجوداً وأن المعرفة نوعان يقينية مطلقة ثابتة وهي العلم بالوجود وظنية نسبية متغيرة وهي العلم بالموجودات.

- واذكر بروتاغوراس بأن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً مقياس وجود ما يوجد ومقياس لا وجود ما لا يوجد.

- وأذكر كوبرنيكوس باحتمالات النسبية التي بين الحاس والمحسوس التي هي بين الراصد والموضوع.

- ولا تصرف قول أرسطو بأن الإنسان حيوان اجتماعي إلا إلى النفعية والمنفعة وحب الذات والحياة والأنانية ذلك بأنه ليس من طبعه أن يحصل على الحماية والمنفعة إلا في المجتمع: الأمور التي يجب أن نصرف إليها قوله بأن الإنسان حيوان ناطق وجد المنطق وبما هو ناطق فإن الحماية والمنفعة لا تكونان إلا بالمسؤولية وبالجزاء وبالثواب وبالعقاب وبالتعاقد وبالإلزام الخلقي فمخافة الغرامة والحبس والإلزام الخلقي فمخافة الندامة وعذاب الضمير.

▪ ويظل الإنسان في كل هذه الأمور وفي جميع هذه الأحوال كائناً طبيعياً من الطبيعة وإلى الطبيعة وفي الطبيعة وإنه ليس من ما بعد الطبيعة أو في ما بعد الطبيعة ما دام هو عنصر من عناصر الطبيعة في بيئة طبيعية غير محكوم فيها إلا بغريزة حب الحياة وبمبدأ الذاتية.

▪ والحقائق محكومة بطبائع السلوك لا بالمنطق.

▪ وإلا فما المنطقي - مثلاً - في قولك: إن الكائن البايولوجي كائن يتماسك من الداخل في الداخل ضد عوامل الهدم من داخل ومن خارج ويبني نفسه حتى بلوغ بداية مرحلة الذبول بعد مرحلة الازدهار فيبدأ الهدم بما لا راد له من عوامل البناء جميعاً وبما لا راد له من العلوم والآداب والفلسفات والخ... والخ... وفي التاريخ كلها بلا استثناء.

▪ لماذا، إذن، لا تكون للكائنات الحية من غاية إلا الموت؟

▪ وما المنطقي في هذا الأمر؟

▪ إن المنطق لا يحكم إلا نفسه... وإلا فما المنطقي في رأي أرسطو بأن هذا العالم قديم مادة وزماناً وحركةً؟؟

▪ وما المنطقي في رأي أفلاطون بأن هذا العالم لم يكن إلا بفعل الصانع المبدع أخرجه من مادة أولى غير متعينة وجعله على غرار المثل؟

▪ واجعل مدة المحاورة بين أرسطو وأفلاطون مليار مليار قرن لتعلم أيهما منطقي أكثر من الآخر بهذا الشأن تجد أنه ليس من حق أحدهما أن يلزم الآخر بمنطق حتى لو استمرت المحاورة أبد الدهر.

▪ وأصرف رأي أرسطو إلى الوثنية والدهرية وفروض العلم إذا شئت.

▪ وأصرف رأي أفلاطون إلى نوع من أنواع الدين ولون من ألوان الإيمان.

▪ أو أصرفهما معاً إلى الشعر والأدب والفن... والخ... والخ... والخ... أو إلى الفلسفة لكن لا إلى المنطق الذي لا يحكم إلا نفسه.

- وليس للطبيعة قبل وبعد.
- وليس للتاريخ قبل وبعد.
- والمنطق لا يحكم إلا نفسه.
- وقل ما قبل الكتابة لا تقل ما قبل التاريخ وقل ما بعد الكتابة لا تقل ما بعد التاريخ.
- وقل ما قبل الفلسفة لا تقل ما قبل الطبيعة.
- وقل ما بعد الفلسفة لا تقل ما بعد الطبيعة.
- ولا تقل ما قبل التاريخ.

يمين يسار ويسار يمين الجهات
والذات والمكان والوعي والزمان
والثقافة والمدنية والحضارة والتاريخ

وتمييز اليسار من اليمين مثل تمييز اليمين من اليسار من مبادئ الإدراك العقلي في أول التكوين المنطقي لمبادئ العلاقة بين الذات والمكان والإحساس بتحقيق وجود الذات... وبهذا ومنه وبه وعليه فنحن لا نرى تمييز اليسار من اليمين وتمييز اليمين من اليسار إلا من المقولات الأولى في منطق العقل ومنطق بداية وعي الإنسان... ذلك لأن المكان من المقولات الأولى في منطق الطبيعة وفي منطق العقل وفي منطق الإحساس... وهذه حقيقة مقولية في أول مبادئ تأسيس الوعي الإنساني ومبادئ الإحساس بالوجود وتحقيق الذات... وإنها لحقيقة لا يختلف بشأنها عاقلان... هذا، ولك - إذا شئت اتفاقاً معنا - أن تدعو بالمجادلة كل الحسيين التجريبيين وكل المثاليين العقليين إلى إعادة النظر في التمذهب الفلسفي منطلقين من: لي يسار وهذا يساري ولي يمين وهذا يميني... وإني أميز بين اليسار من اليمين: فلا استدير نحو اليسار إذا أردت الاتجاه إلى اليمين.

وإني أميز اليمين من اليسار: فلا استدير نحو اليمين إذا أردت الاتجاه إلى اليسار... وإني أميز اليمين من اليسار وأميز اليسار من اليمين فإني إذن موجود أدرك ذاتي وأدرك الوجود والموجودات ونظام العلاقات بين المجموعة المقولية (المكان - الذات - الموجودات - الوجود -

الإحساس - الوعي - الإدراك - مبدأ الذاتية وعدم التناقض والثالث المرفوع - غريزة حب الحياة وفطرة وعي الذات بالتمييز بين اليمين واليسار والمحافظة عليها بالمحافظة على البقاء).

وإني بهذه المجموعة المقولية كائن موجود يعي الذات بالمحافظة على البقاء ويحافظ على البقاء بالتمييز بين اليمين واليسار ويوفق بين أفلاطون وأرسطوطاليس على هذا الأساس: لا الكلي المطلق المجرد سابق في الوجود على الجزئي النسبي المحسوس كما يرى أفلاطون ولا الجزئي النسبي المحسوس سابق في الوجود على الكلي المطلق المجرد كما يرى أرسطوطاليس ولا بداية الوعي بأني أفكر فأنا حينئذ موجود كما يرى رينيه ديكارت ولا إني أحس فأنا حينئذ موجود كما يرى جون لوك: إنما التمييز بين اليسار واليمين بداية الوعي المنطقي ضمن حدود منطق فطرة حب الحياة والمحافظة على البقاء وتمييز اليسار من اليمين واليمين من اليسار في الذات وفي الموجودات خارج الذات وفي المكان: لا وعي ولا تطور ولا منطق ولا ثقافة ولا مدنية ولا حضارة ولا تاريخ إلا بمعرفة اليمين من اليسار واليسار من اليمين: بداية لا بد منها لإدراك الذات والمكان والعلاقة بينهما وعلاقتهما بالزمان وبالآخرين.

لا بداية إلا بالخصف من ورق الجنة ...
اتخذ لنفسك رداء يخدمك لا رداء تخدمه
فالجمال كالثقافة وكالذوق الرفيع بساطة لا تعقيد

ولما أراد الله - جلت قدرته - أن يخلق الإنسان، خلق آدم - عليه السلام - من الطين، وجعله على صورته، ونفخ فيه من روحه، ورش عليه من نوره، وقال له: اقبل فأقبل، وقال له: ادبر فأدبر، وقال له: - مخاطباً العقل - «وعزتي وجلالي إنك أشرف ما خلقت».

تلك هي صورة خلق الإنسان في قصص التوراة والإنجيل والقرآن وفي تفاسير القرآن.

وكانت أطوار خلق الإنسان - في التوراة وفي الإنجيل وفي القرآن - ثلاث مراحل بإذنه تعالى في ثلاثة أدوار على هذا النحو:

دور الخلق تكويناً من الطين مادة بلا روح.

دور نشوء الحياة في التكوين المادي الذي لا حياة فيه.

دور نشوء العقل وبداية الوعي في الجسم الحي الذي لا وعي فيه... وما كان ليكون شيء من هذه الأمور إلا بإذن الله.

واصطفى الله الإنسان وعلَّم آدم الأسماء كلها، ثم عرض المسألة على الملائكة، فلم يكن لهم بها علم، ذلك لأنه لم تكن لهم جسوم تحمل الحياة، وحياة تحمل الوعي، وحياة تحمل التجريب، وتجريب يحمل الأسماء والعلم بالمسميات بإذن الله.

وسجدت الملائكة لآدم إلا إبليس الذي استكبر مخاطباً الرب:

خلقتني من نار وخلقته من طين: محتجاً بأن النار أشرف من الطين... وأخرج إبليس من الجنة وصار من المطرودين: ذلك بما كسبت يداه من آثام المعصية بالاعتراض على الرب - جلت قدرته - بحجة وبمنطق فيه قياس وفي القياس مقدمتان: مقدمة كبرى ومقدمة صغرى ونتيجة اتكأ عليها إبليس فكان من الملعونين.

وكما طرد إبليس من الجنة بناءً على المعصية والأكل من شجرة القياس والمنطق والاحتجاج والمجادلة، فقد شاءت قدرته تعالى أن يطرد آدم من الجنة بناءً على المعصية والأكل من شجرة الوعي والمعرفة والتمييز والدراية، فصار وزوجه الخجول يخصفان عليهما من ورق الجنة، فقد هالهما من المعرفة وعي، وهالهما من الوعي معرفة انتباه إلى العري عريهما فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة بأمر الرب وصارا من المطرودين جزاء بالذي أكلاه من شجرة الوعي والمعرفة والدراية والتمييز والانتباه إلى العري بعد الغفلة عنه.

وبعد... فهذا أدق دقائق حقائق الثقافة داخل دائرة الدين والفلسفة والعلم وأساطير الأولين... وانظر في الحالين التاليين تجد أمراً عجبا من أمر العري والكساء بين الطاعة والمعصية: من الخصف من ورق الجنة إلى آخر صيحات الأزياء.

وأنظر في الحالين:

حال الطاعة: اجتناب شجرة المعرفة - الجهل - الغفلة - العري... الخ... الخ.

وحال المعصية: الاقتراب من شجرة المعرفة - العلم - الدراية - الانتباه - الخجل - الحياء - الخ... الخ... الكساء: كساء العري بداية بالخصف من ورق الجنة... ولا بداية إلا بالخصف من ورق الجنة، واتخذ لنفسك رداء يخدمك لا رداء تخدمه فالجمال كالثقافة وكاللياقة وكاللباقة وكالحسن وكالرشاقة وكالذوق الرفيع بساطة لا تعقيد... وإذا لم تدنس من اللؤم فكل رداء ترتديه جميل.

لا اختراع ولا اكتشاف بل وضع من أوضاع رد الفعل والتأقلم والتكيف حلاً لمشكلة باتخاذ مواقف في المواقع

خذ جسماً غير منتظم الشكل ودحرجه تجد أنه لا يتدحرج دائرياً على محيط حول محور... وتجد أنه ينقلب وينقلب من وجه إلى وجه ولا يدور كما تفعل العجلة دائرة حول المحور.

وخذ متوازي سطوح ومنشوراً ومكعباً وهرماً ومخروطاً.

ودحرج متوازي السطوح تجد أنه ينقلب بنسبة قوة الدفع ويستقر على وجه: لا محيط له ولا يدور.

وهكذا الحال إذا دحرجت المنشور والمكعب والهرم فإنك تجد أنها تتقلب وتنقلب وتستقر على القاعدة أو على وجه من الوجوه: لا تتدحرج دائرياً على الأرض حول محور كما تدور العجلة.

ودحرج المخروط تجد أنه يدور حول الرأس مركزاً لدائرة يرسم محيطها باستدارة محيط القاعدة: ولا يتدحرج دائرياً كما تفعل العجلة.

ودحرج بعد ذلك جسماً كروي الشكل... خذ كرة ودحرجها تجد أن الجسم الكروي يتدحرج دائرياً بدوران المحيط على الأرض حول محور يمتد من نقطة على المحيط إلى نقطة تقابلها ويمر بالمركز مركز الكرة.

إن الجسم الكروي يدور إذا دحرجناه حول محور مار بالمركز كما تفعل العجلة.

وخذ جسماً اسطوانياً ودحرجه تجد أنه يتدحرج حول محور يمتد متعامداً بين مركز القاعدتين.

والعجلة مقطع منتظم من جسم اسطواني.

ولو لم تكن جذوع الأشجار اسطوانية الشكل لما كان تحويل الحركة الدائرية إلى حركة مستقيمة وتحويل الحركة المستقيمة إلى حركة دائرية أساساً يقوم عليه التطور كله... ولو لم يكن أمر دحرجة الجذع حول محوره أسهل من أمر سحله باتجاه الارتفاع مماساً للأرض وموازياً للمحور لما كانت ولما كان هذا التاريخ تاريخ عجلة... لا بل لكان هذا التاريخ تاريخ فيزياء أخرى وتاريخ رياضيات أخرى وتاريخ عربات بلا عجلات والخ... والخ... بل لكان تاريخ عجلات تنقلب وتنقلب ولا تدور... لا بل لكان تاريخ ليس فيه دوائر وليس فيه كرات ولا اسطوانات... بل لكان تاريخ رياضيات أخرى ورياضيات تاريخ آخر لا يشبه هذا التاريخ بشيء من أشياء فيزياء الحركة الدائرية وأشياء رياضيات الدائرة والكرة والاسطوانة وأشياء تحويل الحركة الدائرية إلى حركة مستقيمة والحركة المستقيمة إلى حركة دائرية في أعظم اقتصاد طبيعي.

ولو لم يكن أمر الدحرجة حول محور الجذع أسهل من أمر سحله باتجاه المحور لما كان هذا التاريخ تاريخ أقواس وعجلات وعتلات ودشالي وبكرات واقتصاد القوى والجهد والطاقة واتجاه الحركة ومنحاها بين الدائرية إلى المستقيمة وبين المستقيمة إلى الدائرية في الاقتصاد الأعظم بين سحل جذوع الأشجار في اتجاه ارتفاعها على الأرض وبين دحرجتها على الأرض دائرياً حول المحور المار من مراكز المقاطع المنتظمة محوراً للعجلة وقطباً للرحى ومركزاً للدائرة في الرياضيات.

أم ترى أن تاريخ هذه الدنيا ما كان ليكون إلا تاريخ أقواس وعجلات ودشالي وعتلات وبكرات حتى لو لم يكن الجذع الشجر اسطواني الشكل وحتى لو لم يكن الثمر دائري الانحناء في العنب وفي الرطب وفي الزيتون

وفي الرمان والخ... والخ... والبذور جميعها والقمح والعدس والحبوب والبقول وكل الذي كان الإنسان يتسلقه أو يسحله أو يدحرجه أو يقطفه أو يأكله مما تنبت الأرض ومما تحمل الأشجار واذكر أن تاريخ هذه الدنيا ما كان ليكون إلا تاريخ الناعور والرحى والعجلة والقوس والبكرة والدشالي والعتلات... ذلك لأن هذا التاريخ في فضاء كروي اللا تناهي وكروي الأجرام.

واذكر أن الإنسان قد ابتكر الرحى واخترع العجلة قبل أن يعرف شيئاً عن كروية الأرض وقبل أن يعرف شيئاً عن دائرية الأفلاك وقبل أن يعرف أن أجرام الفلك أجسام مادية وتدور في أفلاك.

لا من دائرة الفلك إذن، ولا من دوران الأجرام السماوية في الفضاء... بل من دحرجة جذع الشجر ودحرجة الثمر وكروي الشكل من الحصى والحجارة وتدحرجها تعلم الإنسان اختراع الناعور والرحى والعجلة والاقتصاد الرياضي والفيزياء العظيم بين الحركة الدائرية إلى حركة مستقيمة وبين الحركة المستقيمة إلى حركة دائرية: لا بناء إلا على أن دحرجة جذع الشجر حول محورها على الأرض أسهل من سحله على الأرض نحو الارتفاع وباتجاه المحور... ذلك هو معنى قولك إن الرياضيات محكومة بطبعها وإن مجمل التاريخ وضع من أوضاع تكيف الإنسان بين طبائع الأشياء إلى القانون الرياضي وبين القانون الرياضي إلى طبائع الأشياء.

وكل هذا شيء... أما الشيء الآخر فإن الاختراع تكيف لا ابتكار وإن الابتكار تكيف لا اختراع... وإن ابن آدم لم يخترع العجلة والرحى والناعور إلا داخل تاريخ الفعل ورد الفعل والتكيف في العمل لا في الفكر.

ذلك هو بعض معنى قولك إن الفكر تبريري وإن المعرفة نتيجة عرضية من نتائج حل مشكلة... ومنها مشكلة نقل جذع النخلة بين الدحرجة والسحل... والخ... والخ... وأشياء.

لا بل المكين بالمكان

إنك محكوم بعوامل البيئة... وإنك محكوم بعوامل الوراثة... لكن البيئة أغلب في الحكم عليك من الوراثة.

وليس قولك (المكان بالمكين) من صحيح الرأي إطلاقاً في نسبة الكائنات إلى البيئة والبيئة إلى الكائنات.

وانظر إلى الفراشات.

وانظر إلى الصراصير.

وراجع رأيك في الحكم على الفراشات في حال تصورك افتراضاً أنها لا تعيش إلا في بيئة الصراصير.

وراجع رأيك في الحكم على الصراصير في حال تصورك أنها لا تعيش إلا في بيئة الفراشات.

فالفراشات فراشات بالبيئة... وكذلك الصراصير.

و(المكين بالمكان) أصدق إطلاقاً من قولك (المكان بالمكين).

وإلا ما رأيك في الأمر؟ وما رأيك في مراجعة الحكم على الفراشات وعلى الذباب لو تبادل الفريقان بيئتيهما واحتلت الفراشات بيئة الذباب واحتل الذباب بيئة الفراشات، وأثقلت الحدائق أجنحة الذباب بروائح الورد، وأثقلت المزابل أجنحة الفراشات بحمى التيفوئيد؟ أتظل في رأيك على خطأ القدماء وعلى رأي الأقدمين وقولهم (إن المكان بالمكين).

أم إنك ترى أن الإنسان شيء آخر... وإنه لا فراشة ولا ذبابة ولا

صرصور، وإن قولك (المكان بالمكين) من أصدق ما يكون الرأي في نسبة الإنسان إلى المكان والمكان إلى الإنسان؟ وإن فعل الإنسان في البيئة أفعل من فعل البيئة في الإنسان... وإن المكان حينئذ بالمكين كأنك لا ترى الأسباب التي بين هجرات الأقوام وقيام الدول في التاريخ وكأنك لا ترى النسبة بين هذه الهجرات وبين هجرات الطيور.

واختصر... اختصر... وأوجز لا تسهب... واسمعني لا تسمع غيري وقل إن المكين بالمكان أصدق بمليار سنة ضوئيةٍ من قولك المكان بالمكين... ذلك بأن قولك (المكان بالمكين) ليس إلا من نوع الكلام الفارغ الذي نتداوله بلا حساب ونحترمه بلا تقدير وندافع عنه لا بناء إلا على أنه من أصح ما يكون وهو في حقيقة الأمر من الخطأ الذي لا صحة فيه إلا من وهم في الرؤوس إذ يخيل إلينا أن الأماكن تتسع وتزهو بالأصدقاء المتصافين صارفين النظر عن ألف ألف قانون إنساني نفسي منطقي صحيح: ومنها أن المشكلات لا تكبر إلا في الأماكن الضيقة، ومنها أن المكان بيئة تحكم العادات والتقاليد وأساليب العمل وطرائق اللهو والخ... والخ... والطقوس وجميع أنماط السلوك... واستعرض في تصوراتك المسابح والنوادي والجوامع والأسواق والخ... والخ... والمتاحف والجامعات والمزارع والمصانع تجد أن قولك (المكين بالمكان) أصدق مليون مليار سنة ضوئية من قول الآخرين (إن المكان بالمكين) وتجد أنك كائن زمكاني وكتلة زمكانية مقدارها = الزمان × المكان × الذات.

وتجد أن قيام الزمكانية بالمكان وتموضعها فيه من الكلام الصحيح... ولا يصح قولك إن المكان يقوم بالزمكانية ويتموضع فيها ليصح قولك إن المكان بالمكين.

ولا صحة لتموضع المكان في الزمكان إلا في الشعر وفي التصوف وفي الحلول وفي وحدة الوجود وفي الفن عامة وفي الأدب على وجه العموم وفي البلاغة خاصة وفي البيان الرمزي المفلسف على وجه الخصوص.

لكن لا في الرأي الفلسفي الزمكاني في التاريخ: تاريخ المكين في المكان بيئة تحكم بعواملها الكتلة الزمكانية التي لم يكن لها الوعي إلا بإدراك الزمان مدة تعدها حركة المتحرك في المكان... وإلا فما بداية الوعي إن لم يكن إدراك الذات زمانياً في مكان أو إدراك الذات مكانياً في الزمان؟ وليس الوعي في البداية إلا إحساس الذات - قبل نشوء اللغة - بالمدة جراء مرور الزمان: الذي كان منه الإحساس بالانتقال من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان: الذي كانت مدته إدراك زمنين في مكان واحد وإدراك مكانين في زمن واحد: الذي هو أساس الوعي والمقارنة والقدرة على مغادرة الزمان والمكان والذات مغادرة سايكولوجية: الأمر الذي كان منه التطلع إلى الوضع الآخر: الأمر الذي كان منه النقد والاختراع والاكتشاف والخ... والخ... والقوس والعجلة ورأس الرجاء الصالح والقهوة والشاي والطريق إلى القمر والنرجيلة وراحة الحلقوم.

الحاجة والعضو والوظيفة

إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تحمل جميع مبررات وجودها بكونها عضواً مستدعى بحاجة كونية للقيام بوظيفة كونية.

وإن كل عنصر من عناصر هذا الكون يحمل جميع مبررات وجوده بكونه عضواً كونياً مستدعى بحاجة كونية للقيام بوظيفة كونية.

وإن كل مركب من مركبات هذا الكون يحمل جميع مبررات وجوده بكونه عضواً كونياً مستدعى بحاجة كونية للقيام بوظيفة كونية.

وإن الوظيفة الكونية وظيفة فيزيائية كيميائية بايولوجية كهرومغناطيسية مثلما هي في الوقت نفسه رياضية فلكية.

هذا ولا شيء مما هو في عالم الجماد أو في عالم النبات أو في عالم الحيوان أو في عالم الإنسان أو في عالم الحواس والأخيلة والتصورات والانفعالات والعواطف والفكر والحدس إلا هو وظيفة عضو مستدعى للقيام بوظيفة كي يسد حاجة: الأمر الذي يصف حال النحو والصرف والبلاغة والعروض والموازين والمعايير والمقاييس وأعضاء الكائنات الحية وأجهزتها والخ... والخ... والمنظمات الاجتماعية والأنظمة والقواعد والقوانين والدساتير والخ... والخ... ونظم التربية والأخلاق وجميع المؤسسات الإدارية والسياسية والفنية والحزبية والخ... وجميع الأشياء بلا استثناء من أصغر إبرة إلى آخر التطورات في أعظم سفن الفضاء تطوراً... والخ... والخ... والملابس والمغارات والكهوف والأكواخ والبيوت والدور والقصور والجوامع والمساجد والمنابر والمحاريب

والكنائس والكاتدرائيات والقلاع... وجميع وسائل النقل والإنتاج والإقناع والتجميل والعمل والعلاج والتصحيح والخ... والخ... لا شيء من هذه الأشياء إلا وهو عضو مستدعى بحاجة للقيام بوظيفة.

وقد يكون العضو ذرة أو عنصراً أو مركباً والخ... والخ... أو عيناً أم أذناً أو فماً أو إصبعاً أو لساناً أو أنفا والخ... والخ... أو قلماً أو دفتراً أو ساعة... والخ... والخ... أو تلفوناً أو تلسكوباً أو مايكروسكوباً والخ... والخ... أو سفينة أو قاطرة أو طائرة أو جملاً أو بغلاً أو حماراً أو بلبلاً أو ببغاءً أو ثوراً أو عندليباً أو جريدة أو مجلة أو كتاباً والخ... والخ... أو مشمشاً أو كبةً أو شربت زبيب العافية أو كباباً والخ... والخ وجميع أنواع المأكل والمشرب والمسكن والملبس والخ... والخ... والمطلق عند هيجل والنزوة الحية عند برجسون ومثال الخير الأعظم عند أفلاطون وواجب الوجود عند الفارابي والكامل عند ديكارت الذي لم يكن في حقيقة الأمر إلا عضواً مستدعى لحاجة للقيام بوظيفة العاصم من الخطأ والخ... والخ... وجميع المعاني والأفكار والانفعالات والعواطف.

وقد تكون الوظيفة نفعية وقد تكون الوظيفة جمالية.

وقد تكون الوظيفة نفعية جمالية... محتفظين برأينا الآخر في الضفة الأخرى من النهر بأن كل نافع جميل وبأن كل جميل نافع... وإن المسألة مسألة تفاوت بدرجة النوع لا بدرجة الكمية وإن الكهف الآمن والمغارة الآمنة بل والعراء الآمن أجمل من أجمل القصور في التاريخ إذا لم يكن القصر آمناً مطمئناً... ويظل كأس الحنظل أجمل وأحلى وأنفع من كأس الشهد إذا كان من الشرط في الاشتراط أن يكون كأس الحنظل مع العز وكأس الشهد مع المذلة.

ولا أشنع وأكثر شناعة من الإصرار على التشبث بالعضو رغم انتفاء الحاجة إليه بانتفاء الحاجة إلى وظيفته... وإلا فهل أشنع من الإصرار على التشبث بالجمال وبالبغال والحمير بعد أن أسقطت وظيفتها والحاجة إليها

في حمل الأثقال والنقل والسفر آلاف آلاف المخترعات تحت قبة هذه الثورة التكنولوجية.

بل ما الجميل النافع في الاحتفاظ بعضو مشلول كاليد المدلاة التي لا تقوم إلا بوظيفة الدلالة على الشلل والعجز.

واختصر لا تطل وقل لا أشنع من التشبث بعضو فقد تبرير وجوده بالوظيفة النفعية وليس له بعد هذا الفقدان ما يبرر وجوده من وظيفة جمالية كالتي للمآذن وأبراج الكنائس بعد انتفاء الحاجة إلى وظائفها النفعية في توسيع دائرة إذاعة أصوات المؤذنين والأجراس بعد الانجازات التكنولوجية ومنها مكبرات الصوت.

واختصر لا تطل وقل من الجميل النافع في إلقاء محاضرة على الملأ والملأ يجيد القراءة كما تجيدها أنت ويمتلك إلى محتوى محاضرتك جميع الوسائل التي تمتلكها؟

أجل إن المحاضرة لم تنشأ في الأصل إلا عضواً وسيلةً سبباً مستدعى بحاجة للقيام بوظيفة هي تعليم الذين لا يعلمون من الذين لا يقرأون أو لإخبار الملأ بما نعلم من أمر وهم لا يعلمون فلا جرائد ولا إذاعات ولا تلفزيونات ولا كتب ولا مجلات.

وإلا فهل أكثر شناعة من إلقاء محاضرة على الملأ وأنت لم تخترع جديداً ولم تكتشف مجهولاً ولا أنت عائد بأخبار من المريخ؟

ذلك هو سبب أسباب المباشرة بالقهقهات كلما دعيت إلى إلقاء محاضرة على جمهور يجيد القرأة والمكتبات مفتوحة عامرة بالكتب وبالجرائد وبالمجلات وبالمخطوطات للجميع إضافة إلى أسباب إذاعة الثقافة علماً وأدباً وفناً بالإذاعات ودور السينما والتلفزيونات وبقاعات المحاضرة وصفوف الدرس المفتوحة في المدارس والمعاهد والجامعات.

ذلك كي لا يسقط النقد الثقافي خارج دائرة التربية والتطور والتخطيط والاكتشاف والاختراع والتحليل والتركيب والنقض والإبرام في تاريخ حتمية الارتقاء والتجديد

إنه ابن آدم... إنه يستطيع أن ينظر من الحاضر إلى الماضي كما يستطيع أن ينظر من الحاضر إلى المستقبل فيرى الماضي ويرى المستقبل حتى لو كانت المدة بينه وبين الماضي أزل الأزل وحتى لو كانت المدة بينه وبين المستقبل أبد الأبد.

وقد تكون الرؤية واضحة كما قد تكون غامضة... وكما قد تكون الرؤية وسطاً بين الوضوح وبين الغموض، وخليطاً مزيجاً من غموض ومن وضوح.

والوضوح درجات.

والغموض درجات.

والرؤية مراتب.

والرؤية الصادقة الواضحة في النظر إلى الماضي قبس من فلسفة التاريخ.

والرؤية الصادقة الواضحة في النظر إلى المستقبل قبس من العلم.

والنظر من الحاضر إلى الماضي تربية... والنظر من الحاضر إلى المستقبل تخطيط... والنظر إلى الماضي مراجعة وجمع... والنظر إلى المستقبل استشراف ولا استشراف بلا مراجعة وجمع.

ولا تخطيط بلا تربية... ولا تصح التربية إلا بصحة النظر النقدي الصحيح إلى التاريخ... ذلك لأن التخطيط للمستقبل لا يكون إلا بنقد الحاضر الذي لا يكون إلا على قدر المتراكم لدى الإنسان من الخبرة ومن التجريب الذي لا يكون إلا على قدر النظر من الحاضر إلى الماضي لا بناء إلا على أن الحاضر وضع لا زمكاني بل وضع رياضي ينتقل فيه الماضي إلى المستقبل كانتقال المقادير الرياضية من حال إلى حال بعد إجراء العمليات... والنظر إلى المستقبل بلا تحصيل من النظر إلى الماضي مستحيل... وإلا فكيف؟

والنظر إلى الماضي بلا تحصيل من النظر إلى المستقبل مستحيل... وإلا فكيف؟ ولا يزدهر الحاضر إلا على قدر صحة الرؤية في النظر إلى الماضي وإلى المستقبل الذي تريده بالتصور وبالتخيل وبالحاجة والخ... والخ... وبالتخطيط.

ولا اختراع ولا اكتشاف ولا استكشاف ولا تقدم ولا تطور ولا ازدهار إلا بالتخطي الذي يتخطى به الناقد حاصل ضرب زمان ومكان من الماضي إلى حاصل ضرب زمان ومكان من المستقبل.

وهكذا يكون الكائن البايولوجي المتطور حيواناً رياضياً فيزيائياً زمكانياً إضافة إلى ما هو حقيقة وبالطبع حيوان اجتماعي ناطق ليس من طبعه أن يزدهر إلا بمنطق العقل الممازج لمنطق الطبيعة ولطبائع الموجودات جماداً ونباتاً وحيواناً وإنساناً في المجتمع... ذلك بأن الإنسان حيوان اجتماعي ناطق لا ينقض شيئاً من الحاضر إلا بناءً على حاجة لا تقضيها له التربية المتوارثة من الماضي كما ينبغي أو كما يريد.

والنظر إلى المستقبل نقد وتخطيط... والنظر إلى الماضي نقد وتاريخ... ولا تقدم ولا تطور ولا رقي ولا راحة ولا ارتقاء بلا نقد وتخطيط وتاريخ.

لا نقد بلا تاريخ... ولا تخطيط بلا نقد

ولا نقد بلا حاجة ملزمة بتخطي الماضي إلى الحاضر، والحاضر إلى المستقبل والمستقبل إلى التطلع والانتظار، واحسب حاصل المتفاعل من تفاعل التطلع والتمني والصبر والانتظار بعداً مكانياً آخر لا بد من افتراضه نحو تثبيت قواعد فيزيائية ظرفية رياضية لتخطي تخوم الزمكان تخطياً لا بد منه لتعريف الإنسان... وإلا، فما الإنسان؟ ما الإنسان؟ ما الإنسان هذا الكائن الحي الذي يحس ويعقل ويتذكر ويلتذ ويتألم وله تاريخ؟

إنه الذي لا سيادة له على الحاضر إلا بقدرته على تحرير نفسه من قيود الماضي وبالقدرة على التحرر من الذات ذاته بالتفوق عليها وبمغادرتها إلى حرية في الزمان وإلى حرية في المكان وإلى حرية في الزمكان فإلى فلك خارج الفضاء فضاء إدمان القديم وركود العادات نحو الحتم الزمكاني التطوري المتفاعل تفاعل تحد واتحاد في مختبرات الطبيعة والتطور والعالم الصحيح والإنسان الكوبرنيكوسي الذي لو لم ينظر إلى بطليموس لما نظر بعد الثورة الكوبرنيكوسية إلى نيوتن وإلى آينشتين... ولا إلى أسفار تفقد على طرقاتها المادة الوزن ولا تفقد ذرة من كتلة ولا ذرة من حجم أو شكل.

ولا اختراع.

ولا اكتشاف.

ولا استكشاف.

ولا جديد.

ولا تجديد.

ولا تحسن... ولا تحسين ولا تطور ولا تقدم ولا ارتقاء إلا بهذه الحرية الزمكانية التي صار فيها للإنسان كساء أحسن من ريش وصوف ووبر وشعر أحسن من ريش النسر وأحسن من وبر الجمل، وأحسن من صوف

الظان، وأحسن من شعر الماعز... والخ... والخ... وصار له في هذه الحرية الزمكانية بيت أحسن من مغارة الأرنب وأحسن من كهف الدب، وأحسن من عش اللقلق وأقوى من عرين الأسد وبيت العنكبوت... وصار له بهذه الحرية الزمكانية تفوق على الطبيعة وانتصار على الذات ضرباً كمياً فيزيائياً رياضياً لا كناية ولا استعارة ولا تشبيه ولا بلاغة ولا بيان إنما حساب تحت قبة زمكانية لإنسان يمتلك قدرة التحرر من حدود الزمان ومن حدود المكان ومن حدود الذات ذاته التي لا أسهل من إدمانها الحاضر إذا لم تستحث بالنقد إلى النظر يميناً ويساراً وإلى الخلف وإلى الأمام وإلى الماضي وإلى التاريخ وإلى جميع جهات التجديد عبر حدود الزمان والإنسان ومألوف العادة والركود والمكان والزمذات والمكذات والزمكذات ولا تشكيل ولا إعادة تشكيل إلا في الحرية والتحرر من قيود الزمكذات نحو حرية زمكذاتية في بواطي لدائن التشكيل والإبداع.

والاختراع تشكيل

ولا يكون التشكيل إلا بالنقد الذي لا يكون إلا بتصور يحل ما ينبغي أن يكون محل ما هو كائن... كما لا يكون النقد إلا بالتشكيل الذي لا يكون إلا بتصور يحل ما ينبغي أن يكون محل ما هو كائن.

ولا نقد.

ولا تصور.

ولا تشكيل.

إلا بحرية زمكذاتية من الموضوعي إلى المعياري في الجدل الصاعد... ومن المعياري إلى الموضعي في الجدل النازل.

ومن الأجزاء إلى الكل بالتركيب، ومن الكل إلى الأجزاء بالتحليل... وهذا هو النقد بمعنى رد الكل إلى أجزائه بتحليل المركب الذي هو تشكيل والتشكيل الذي هو مركب.

ولا تحليل.

ولا تركيب.

إلا بالنقد الذي هو تركيب من جهة الارتقاء إلى الكل وتحليل من جهة النزول إلى الأجزاء.

والتحليل الكيميائي نقد.

وكذلك إعادة التركيب.

والمحلل الكيميائي ناقد.

وكذلك التحليل اللغوي الذي نسميه إعراباً على النحو والمعادلة الكيميائية تشكيل... وكذلك المعادلة الجبرية.

وكذلك القانون الفيزيائي.

وكذلك الجملة من النثر والبيت من الشعر والخ... والخ.

والرسم تشكيل... وكذلك العمارة والنحت والموسيقى... والخ... والخ... والطباخ كالحلاق فنان تشكيلي أول ما يكون إذا توخينا الدقة في أمر المطابقة بين الأسماء والمسميات... وكذلك النجار والحداد والخباز كلهم فنانون تشكيليون لا يبدعون في العمل إلا على قدر الحرية الزمكانية المتاحة في بواطي اللدائن والخ... والخ... وفي صخور الجبال وتظل الحرية الزمكذاتية محكومة بالنسبة وبالتوازن بين أربعة عناصر هي المادة والصورة والفاعل والغاية الأمر الذي يحكم كل المطبوع في الطبيعة وكل المصنوع في المصنوعات.

ولا يتفاضل الناس إذا تفاخروا على سلم الارتقاء إلا بالمتاح لهم من الحرية الزمكذاتية تحت قبة حتمية الارتقاء.

وتلك حتمية محكومة بطبع الحياة بطبائع الموجودات في البر وفي البحر وفي الفضاء.

ولا يكون النقد إلا جزءاً لا يتجزأ من التركيب والتحليل والحرية الزمكذاتية وفلسفة التاريخ من جهة النظر إلى الماضي وخطة الارتقاء من جهة النظر إلى المستقبل الذي لا يزدهر إلا بالنقد على سنة الجمع بين الانسجام والتوافق بين العلل الأربع وبين التحرر من قيود الزمان والمكان والذات.

القيود التي نصطلح على تسميتها بقيود الزمكذات.

ولا تزدهر مناهج النقد والإنشاء إلا بازدهار الحرية الزمكذاتية في بواطي التخطيط والارتقاء.

والنقد في الثقافة كالإنشاء أمانة عجزت الأرض عن حملها واعتذرت السماء وقام بأعبائها عظماء.

كي لا يكون الأدب مبزلاً فتنصرف إليه شرور الخرافة والطائفية والتعصب والعنصرية والغلو والمغالاة والانغلاق

■ ما الأساطير؟

إنها الأدب أول ما نشأ.

وإنها الفلسفة أول ما بدأت.

وإنها العلم في بداية التكوين.

وإنها الإنشاء الأدبي الجميل الأول في بداية الوعي الثقافي وفي بداية التاريخ.

ولا بداية للتاريخ بغير الأدب.

ولا بداية للأدب بغير الأساطير.

ولا بداية للأساطير إلا بالكلام الجميل.

ولا بداية للكلام الجميل قبل بداية الكلمة.

وذلك هو بعض من تفسيرنا الخاص لقولك (وفي البدء كانت الكلمة) من سفر التكوين.

■ والأسطورة رد فعل.

■ والأسطورة حال من أحوال التكيف.

■ والأسطورة اتخاذ موقف بالإنشاء الأدبي الجميل الحر المطلق خارج حدود منطق الطبيعة وخارج حدود منطق العقل وخارج حدود منطق

التاريخ... وإلا لما كانت الأساطير أساساً لمنطق الطبيعة في العلم ولمنطق العقل في الفلسفة ولمنطق التاريخ في الحضارة وفي المدنية وفي الثقافة التي لم تبدأ إلا أساطير آداب وآداب أساطير.

▪ والأسطورة رد فعل ثقافي أدبي للتكيف باتخاذ موقف فطري غريزي طبيعي غير محكوم في الأصل إلا بحب الحياة، وبالمحافظة على البقاء، وبإدامة الخيرات وعوامل التطور من حسن إلى أحسن وعوامل البناء بالتماسك من الداخل في الداخل - بالتصور الحر وبالتخيل الطليق - إزاء عوامل الهدم من كوارث الطبيعة ومن أوبئتها ومن شرور الإنسان.

▪ ذلك هو الأدب أول ما بدأ.

▪ وتلك هي الأساطير في نشأتها الأولى.

▪ وذلك هو الإنسان الذي لو لم يبدأ أديباً رمزياً لما كانت له ثقافة ولا حضارة ولا كان له شيء من هذه الأشياء التي تراها تحت قبة الأدب المفلسفة والفلسفة المؤدبة والعلم المفلسف بآداب التمشي على جبين القمر بين الحاجبين وبين النجوم والكواكب والأقمار حتى كأن لم تكن أساطير الطيران والأساطير الأولى إلا علماً من أصح ما تكون العلوم داخل دائرة أحكام منطق الطبيعة ومنطق العقل ومنطق الأشياء.

▪ ولو لم تبدأ الثقافة بالأساطير أدباً خارج منطق العقل وخارج منطق الطبيعة وخارج منطق التاريخ لما ازدهرت للإنسان حضارة ولما ازدهرت له فلسفة ولما ازدهر له علم... وإلا فما حال الدنيا لو أن وعي الإنسان قد بدأ بالتكيف وبرد الفعل وباتخاذ المواقف داخل دائرة منطق العقل والطبيعة والتاريخ؟؟ إنها ستكون كحال المواليد التعيسة التي لا تولد إلا على الحكمة والكهولة وبلوغ الرشد وحسن التجريب ذلك كي نضرب مثلاً نفرق به بين الأدب الأسطوري الرمزي المفلسف وبين الأدب الخام السخيف... أجل ذلك هو بعض منحانا في تعريف الأدب... والتعريف خلاصة وخطة ومنهج وتوجيه... بل والتعريف طريقة ونظرية ودليل إلى التطبيق... لكن لا

إذا حمت حول المائدة والقصعة والمأدبة لتعريف الأدب والأديب.

▪ والأدب نزعة وغريزة وفطرة وجبلة أولى كالوعي وكحب الحياة وكالمحافظة على الحياة وكالتكيف وكتمني الخيرات... ولم تبدأ هذه الأشياء إلا خارج نطاق منطق العقل ومنطق الطبيعة ومنطق التاريخ... وإلا لما كان في التاريخ منطق ولا فلسفة ولا علم ولا أي من فروع المعرفة بل ولا أي من أسباب التمدن والتنظيم ومنها العمارة وفروع الهندسة جميعاً والسياسة والأخلاق والتربية فكل هذه أشياء لم تنشأ إلا خدمة لأغراض الأدب الذي بدأ أسطورة أول ما بدأ فكان وكانت الأساطير معه نزعة وغريزة وفطرة وجبلة أولى كالوعي وكحب الحياة وكالتكيف وكتمني الخيرات... وبهذا نكون قد أرسينا قواعد التأسيس لأدب لا يرتبط في النشأة وفي التطور إلا بطبيعة الإنسان حقاً ثابتاً دائماً أزلياً أبدياً ونزعة إنسانية طبيعية وغريزة وفطرة وجبلة أولى وإقامة فروض العبادة والتبتل الجميل في محراب الوعي وحب الحياة والتكيف وإدامة التطور وتمني الخيرات التي منها حسن التخلص من الأدب السخيف الخام المحفوف بمخاطر رهيبة مرعبة منها أنه قد يكون مبزلاً فتنصرف حينئذ إليه الشرور التي منها شرور الخرافة والطائفية والتعصب والعنصرية والغلو والمغالاة والانغلاق وضيق الصدور والآفاق والخ... والخ...: الشرور التي لا تجد مبزلاً أوطأ من الأدب فتنصرف إليه ما دام الأدب خاماً سخيفاً.

▪ ولم تكن مساكن الشعراء وآلهة الشعر في الأساطير الإغريقية إلا في أعالي الجبال وفي أعلى أعالي قمة جبل برناس الذي اشتقت من اسمه بالإضافة وبالنسبة البرناسية وبالباريسية الفرنسية المستحدثة.

والحج عرفة... وعرفة جبل.

والجبل علم.

والعلم من الجبل.

والطور جبل... وللطور شأن عظيم بين المتصوفة في الشطح وفي شرح الحال.

ومن الفطري الغريزي أن المعراج رحماني... وأن الهبوط شيطاني، وأن مساكن الرحمن في أعالي نور الأنوار، وأن مساكن الشيطان في أسافل ظلمة الظلمات.

وإن أفلاطون يأمرنا بالخروج من الكهف كناية عن الخروج من الظلمة والانغلاق والانخفاض والخ... والخ... وقد كانت إشادة الصروح من أرقى أسباب التوسل إلى النور والآلهة وخيرات السموات... وكل ما علاك فهو سماء... ولا يغاث الناس إلا من السماء... ولم تكن الأساطير إلا إلهاماً من الإلهام وتنزيلاً من الوحي ووحياً من التنزيل: ذلك كي لا يكون الأدب مبزلاً فتنصرف إليه شرور التعصب والسخافة والانغلاق.

والوحي تنزيل وتنزيل من أعلى علياء المعاني وأسماها في الوجود.

والعلاقة بين الوحي والجبل وطيدة راسخة ولازمة في جميع قصص الأنبياء.

والله الذي في السماء إله الأطفال والبسطاء والأدباء.

والله الذي في كل مكان إله المتصوفة والفلاسفة والأنبياء والعلماء.

وبين التصورين عن الإله رحلة التطور الكبرى التي ما كان لها أن تبدأ لو لم يبدأ الأدب عالياً في حب الراحة والتطور والحياة والازدهار بتمني الخيرات داخل دائرة الأخيلة والتصورات بلا حدود وخارج دائرة منطق العقل ومنطق الطبيعة ومنطق التاريخ.

ذلك هو معنى قولنا
إن الفلسفة ديناصور جميل

تعتمد الفلسفة على التأمل العقلي متبعة أسلوب المحاكمة المنطقية في بلوغ الحقيقة.

ويعتمد العلم على الملاحظة المنظمة بداية لجمع الحقائق نحو اتباع التجريب المختبري والطريقة العلمية ومناهج الاستقراء.

ويعتمد الدين على الوحي الإلهي واسطة للتلقي إلهاماً من الإله مصدر الوجود والمعرفة والأخلاق.

وبهذا يكون مصدر المعرفة إنسانياً في الفلسفات وفي العلوم وإلهياً في الأديان.

ولا تكون المعرفة في العلم وفي الفلسفة إلا بالجهد الإنساني وبالطب وبالاكتساب من الخبرة ومن التجريب.

ولا يكون الوحي إلا نعمة يخص بها الله من شاء من الأنبياء الذين يصطفيهم لتبليغ الرسالات.

ومهما يكن من أمر فالعلم والفلسفة والدين من وسائل المعرفة والتربية والتنظيم... لكن هذه الوسائل تختلف في المصدر وفي الأداء الوظيفي وفي أسلوب التطبيق، ولا أحسن من مجتمع تؤيد الفلسفة فيه العلم وتجيد الانحسار إزاء مده وبتدين الناس فيه بصدق وما شاؤوا الدين لله والهداية للناس جميعاً والوطن للجميع.

الفلسفة والعلوم الإنسانية

لا نقصد بالعلوم الإنسانية إلا العلوم التي يكون الإنسان وعلاقاته الإنسانية موضوعاً لها... ومن هذه العلوم: علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق والعلوم السياسية والخ... والعلوم التربوية والخ... والخ... والتاريخ والاقتصاد والخ... والخ... والتشريع.

ولو رجعنا إلى الأوج الذي بلغته الفلسفة القديمة لوجدنا أن أرسطو وأفلاطون قد أشبعا العلوم الإنسانية درساً واستقصاءً مطابقةً وجواباً لمتطلبات المجتمع ومستلزمات الحياة.

واستمرت هذه العلوم فصلاً من فصول الدرس الفلسفي حتى القرن العشرين فاستقلت عن الفلسفة بإدخال مناهج العلوم التجريبية وبمحاولة تفسير الظواهر بالقوانين التي تحكم سلوكها... لكن هذه العلوم لم تبلغ بعد مرحلة وصف الظاهرة الإنسانية بصيغة كمية رياضية والتعبير عن العلاقة الكمية بصيغة رياضية.

أضف إلى ذلك أن العلوم الإنسانية تؤلف وحدة حياتية موضوعها إنسان كثير الحاجات والدوافع والغايات... ولا يمكن - بناء على هذه الصفة - الانتفاع بهذه العلوم إلا مجتمعة في إطار واحد يؤلف بينها تأليفاً تعاونياً عضوياً فيه تعاون ونظام وتخصص وتوزيع عمل كالذي نجده في عمل أعضاء الكائن الحي: ذلك لأن الإنسان حيوان اجتماعي أخلاقي ناطق تربوي سياسي اقتصادي... ولا يستطيع الانتفاع من العلوم الاجتماعية والأخلاقية والتربوية والسياسية والاقتصادية والخ... والخ... والعلوم الإنسانية الاجتماعية الأخرى ما لم يجمعها تعاون وتخصص ونظام في تأطير فلسفي يصوغ منها نظرية أو نظاماً تربوياً عاماً أو نظرة مفلسفة تمنع التضارب والتضاد الذي قد يقع بين أي من العلوم الإنسانية وعلم آخر منها في النظر أو في التطبيق... ذلك كي لا يكون علم النفس إلا في خدمة العلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخ والخ... والخ... وكي لا

يكون أي من هذه العلوم إلا في خدمة العلوم الأخرى مجتمعة ومنفردة... بل وفي خدمة العلم الرياضي والعلوم التجريبية جميعاً: الأمر الذي ليس لنا أن نبلغه إلا بالنظر الفلسفي الشامل أو بالنزر الشامل المفلسف.

ذلك هو معنى قولنا إن الفلسفة لا تنحسر في جزر إلا لترتفع في مد.

وذلك هو معنى قولنا إنها الديناصور الذي لو لم يكن موجوداً لخلقناه... ولخلقناه ديناصوراً لا تزدهر العلوم في النشأة إلا بالاستقلال عنه ولا تزدهر في التطبيق إلا في التوحد والاتحاد في نظر ديناصوري جميل.

لم تكن الفلسفة في القرون الوسطى إلا ديناصوراً يعاند العلم ولا يقبل به الدين

وأصاب الفلسفة ركود بعد موت أرسطو والإسكندر... وانصرفت المدرسة الوراقية إلى حصر الفلسفة داخل نطاق دراسة طبائع الأشياء سبيلاً إلى الإنسان: من طبيعة الأشياء إلى سعادة الإنسان... تلك هي خلاصة الغاية الرواقية في النظر إلى الطبيعة وإلى الإنسان: لم يكن النظر في العلوم عند الرواقيين إلا وسيلة للنظر في سعادة الإنسان.

وهكذا فعل الأبيقوريون إذ استبعدت المدرسة الرواقية جميع العلوم الطبيعية من مناهج الدرس.

وانتقلت الفلسفة من بلاد الإغريق إلى الإسكندرية في مصر واتخذت طابع العلم الصرف من اهتمامات فلسفية طفيفة على هامش الثقافة لا في الحاشية ولا من المتن... وكان من هذا مذهب أفلوطين الذي اعتاش على أشياء من فيثاغور وأشياء من أفلاطون فصار لهذه الأشياء مجتمعة صوت صوفي وصار أساساً لجميع نظريات الوحدة والاتحاد والحلول ولجميع نظريات وحدة الوجود والمعارج الصوفية والخ... والخ.

كما ظهر في هذه المرحلة فيلون... لكن كل هذه من الضئيل الطفيف الذي لا يزن شيئاً مذكوراً في ميزان نقد الفكر الفلسفي العظيم.

ذلك بأن الفلسفة كانت قد أصبحت ديناصوراً محاصراً مهجوراً منذ موت أرسطو ولم تقم لها قائمة إلا بقيام البحث عن الديناصور المفقود لتطبيعه وإعادة تربيته تربية يجيد بها الانحسار في الجزر إزاء مد العلم ويجيد بها الارتفاع في المد مد الطريقة والمنهج.

وما كان هذا الإنجاز ليتم قبل كوبرنيكوس وغاليلو وديكارت وطلائع العلم التجريبي والفتوحات الرياضية الفلكية العظمى في بداية تاريخ الفكر الفلسفي الحديث الذي لم يكن إلا بداية لازدهار الديناصور المنهجي، فلم تكن الفلسفة ديناصوراً في القرون الوسطى بين سقوط القديم والحديث إلا ديناصوراً يعاند العلم ولا يقبل به الدين.

كي لا تظل الثقافة جحيماً خارج التاريخ

«لولا المخربون في الثقافة لابتنى البابليون زقورات في القمر ولأشاد الفراعنة أهراماً في المريخ»

ما الثقافة؟ وما الحضارة؟ وما المدنية؟

إنها مادة التاريخ الذي يسقط الإنسان خارجه ما لم يكن قد أحسن الدخول إليه والتمكن فيه بالحضارة في المدنية كشريعة حمو رابي في المسلة، وبالمدنية في الحضارة كهرم خوفو في فلسفة المعاد الجسماني والحياة بعد الموت وعودة الروح.

والثقافة روح الحضارة: لا تحيا الحضارة بلا ثقافة فإنها العلم والأدب والفن.

والحضارة روح المدنية: لا تحيا بلا حضارة فإنها السياسة والأخلاق والتشريع.

والمدنية روح التاريخ: لا يحيا التاريخ بلا مدنية فإنها الزراعة والصناعة والعمارة والتعدين والتدجين.

ومثل الثقافة في الحضارة كمثل النفس في الجسد، وكمثل الروح في الجسد، وكمثل القلب في الجسد، وكمثل العقل في الجسد.

وإذا كان قولك إن العقل السليم في الجسم السليم من صحيح الكلام، فإن قولك: إن الثقافة السليمة في الحضارة السليمة من أصح ما يكون الكلام الصحيح... وهكذا يكون كلامك كذلك إذا قلت: الحضارة

السليمة في المدنية السليمة، وإذا قلت: المدنية السليمة في التاريخ السليم.

وحين تعيد الكلام معكوساً لا يكون أصح من قولك: لا يصح التاريخ إلا بصحة المدنية، ولا تصح المدنية إلا بصحة الحضارة، ولا تصح الحضارة إلا بصحة الثقافة.

ولا تصح الثقافة ما لم تحسن نسبتها إلى الحضارة في المدنية... وإلى المدنية في الحضارة، وإلى التاريخ من خلال هاتين النسبتين.

ولا تكون هذه النسبة صحيحة ما لم ينجم عنها التوازن:

بين الإنسان وبين ونفسه.

وبين الإنسان وبين مجتمعه.

وبين الإنسان وبين الطبيعة.

وجميع أعضاء البيئة حية وغير حية حتى نحسن نسبة الإنسان إلى الخلية في الأحياء وإلى الذرة في الأشياء.

ولا خلاص لهذا الإنسان من الأوبئة والكوارث والشرور إلا بهذا التوازن الذي لا يكون إلا بالسيطرة على الطبيعة وبالتفوق على الذات.

والثقافة من الوسائل لا من الغايات... وإنها لا أرقى منها إذا توسلنا بها إلى إعادة التوازن بين الإنسان وبين ذاته من جهة، وبين الإنسان وبين أعضاء البيئة من جهة أخرى، وإلى اقتلاع الإنسان من بيئة وغرسه في بيئة أخرى غيرها إذا تعذر تحسين بيئته التي هو فيها لأسباب قاهرة... الإجراء الذي كان منه اقتلاع الإنسان من البيئة الخرافية الأسطورية وإعادة غرسه في البيئة العلمية الفلسفية.

ولا يكون الكسب إلا حلالاً طيباً إذا كان من إعادة التوازن إلى الحياة بالنافع من الثقافة وهو العلم، وبالممتع الجميل وهو الفن ومنه الرسم والنحت والموسيقى والرقص والأدب... ولا تكون الثقافة إلا عملاً من جهة العلم... ولا تكون الثقافة من جهة الفن إلا لعباً.

وقد تفعل الثقافة في إعادة التوازن باللعب ما لا تقدر فعله بالعمل، كما قد تفعل الثقافة بالعمل ما لا تقدر عليه باللعب في مجال إعادة التوازن بين الإنسان وبين أعضاء البيئة النفسية والاجتماعية والكيميائية والفيزيائية والبايولوجية... والخ... والخ... وإلى آخر تبادل فعل العمل وفعل لعب الأدوار على مسرح الإنشاء الحضاري بالثقافة حتى لا يكون العمل إلا من اللعب ولا يكون اللعب إلا من العمل في العمارة... لا بل في النحت وفي الموسيقى وفي الرسم وفي الرقص ما دام الإنشاء الفني بقصد تاريخي داخل التاريخ الصحيح: الذي لا يصح إلا بالمدنية الصحيحة: التي لا تصح إلا بالحضارة الصحيحة: التي لا تصح إلا بالثقافة الصحيحة: التي لا تصح إلا بتحصينها ضد العبث وضد التخدير وضد الإيهام.

والكسب بالإيهام خطيئة.

والكسب بالتخدير تضليل.

والكسب بالعبث تغفيل.

ولا تصح الثقافة إذا كان فيها كسب بعبث... أو بتخدير... أو بإيهام... ذلك لأن العبث والتخدير والإيهام من أسباب التخريب.

ولا يجوز في دين العمارة الثقافية أن يقبض المخربون أجراً على التخريب.

وإنشاء أحواض السباحة عمل.

والسباحة لعب من اللعب.

وهذا من التربية ومن الصحة ومن تمام رياضات الأنفس وكمال رياضات الأبدان.

ولا يخلو تاريخ السباحة الثقافية من عابثين يتقاضون أجراً على التخريب.

والتخريب في الثقافة تخريب في الحضارة.

والتخريب في الحضارة تخريب في المدنية.

والتخريب في المدنية تخريب في التاريخ، والمخربون في الثقافة مخربون في التاريخ.

والتخريب في الثقافة من أدق ما تكون خفايا الأمور... ذلك بأن المخربين لا يعبثون في الثقافة ولا يعبثون فيها فساداً إلا بعد إسالة دموع النقاد والمراقبين بتفجير قنابل الإيهام والتخدير.

وبعد، فما علاقة المخرب الثقافي في نظرك؟

وما السبيل إلى قطع دابر المخربين في الثقافة وفي الحضارة وفي التاريخ؟

وما معنى قولك: لولا المخربون: في الثقافة وفي التاريخ لاخترق الإنسان الفضاء منذ فجر التاريخ، ولابتنى البابليون زقورات في القمر، ولأشاد الفراعنة أهراماً في المريخ.

إلا أن يكون العبث والإيهام والتخدير بمقدار ولغاية وبتقدير: كجواز العبث في مرحلة من مراحل اللعب وكجواز الإيهام والتخدير في مرحلة من مراحل التداوي والعلاج لتطبيب الخاطر إذا استعصى إسعاف الحال... أما أن يكون العبث أسلوب اللعب فيكون التخدير والإيهام أسلوب التداوي والعلاج فذلك هو التخريب الثقافي في الجحيم الحضاري الذي يولد وينمو ويتكاثر ويحيا ويموت خارج التاريخ.

الأوائل والتأسيس

تفضيل الجيل الذي فيه طه حسين والعقاد والمازني وميخائيل نعيمة وجبران خليل جيران والرصافي والزهاوي وحافظ وأمثالهم وجملة الذين تفتحت بواكير ازدهارهم في النصف الأول من القرن العشرين على جملة الذين تفتحت بواكير ازدهارهم في النصف الثاني منه: لا يجيء ذكر هذين الجيلين إلا وسارعنا إلى استعجال التورط في الخطأ وتفضيل الجيل الذي هو أدنى على الجيل الذي هو خير ونحن عن حق والحقيقة غافلون:-

غافلون عن أحكام سنة التطور التي لا خارق لها مهما بلغت قوة خرق النظام والقانون.

وغافلون عن صدق أحكام سنن التطور في تصديق القواعد الأصولية في التطور ومنها أن هذا الجيل خير من الجيل السابق بكل أحكام فضل الحاضر على الماضي وبكل أحكام فضل المستقبل على الحاضر، وبكل فضل طه حسين على الجاحظ في الإنشاء الأدبي وبكل فضل نجيب محفوظ على طه حسين... والخ... وبكل الدرجات التي ارتقاها عبد الوهاب البياتي ونزار القباني وبدر شاكر السياب فوق الدرجة التي ظل عندها معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وحافظ إبراهيم.

وإلا فما جميع الذي كتبه طه حسين في الإنشاء الأدبي إذا ما قسته بأي من الروايات المجيدة التي أنشأها نجيب محفوظ؟

وما جميع دواوين الرصافي والزهاوي وحافظ إذا قستها بقصيدة واحدة مما أبدع البياتي أو السياب أو نزار؟

وتعالوا نتصارح فإن جبران خليل جبران قد فتن الملأ بأدب لا تقبل به اليوم في النشر الحر إلا على أنه من أدب الناشئين والأقلام الشابة ومواهب المبتدئين في الجرائد وفي المجلات وفي ميادين الشجاعة الأدبية والتدريب... وإلا فماذا تقولون؟

وابدأ بالأوائل في التأسيس واقتدها من الرأس تطاوعك طائعة لا من الأذناب.

ومن الأوائل كتب إذا بدأت بها انقادت إليك الثقافة من الرأس سهلة طائعة راضية مرضية صافية واضحة نافعة جميلة لا خبصة خبيصة مخبوصة بالعر وبالجر من الأذناب.

ومن هذه الأوائل (ملحمة جلجامش) التي هي أول ملحمة كاملة متكاملة مستوفية لتكامل شروط الملحمة الأدبية المفلسفة في التاريخ.

و(شريعة حمورابي) التي هي أول شريعة في مواثيق التشريع في تاريخ التعاقد والمواثيق والمسؤولية والإلزام والجزاء والثواب والعقاب من الأصول إلى الدستور ومن الدستور إلى القانون ومن القانون إلى النظام ومن النظام إلى التعاليم في التطبيق والتعليمات.

والفن الشرقي القديم عامة ومنه الفن العراقي القديم الذي منه النحت الرمزي العظيم المتطور في أنماط أسد بابل والثور المجنح وأنماط أخرى في الفن الرمزي اللا نهائي العظيم كما في تشخيص فريدريك هيجل لمجمل فلسفة الفن في التاريخ.

وقصة الخليقة العراقية كما تداولها قدامى العراقيين جيلاً بعد جيل من بداية تاريخهم حتى سقوط بابل وآشور في غياهب جب التاريخ.

وقصة الخليقة المصرية كما تداولها قدامى المصريين من أول تاريخهم حتى سقوط حضارة الأهرام والتحنيط والقاموس الهيروغليفي في غياهب جب التاريخ.

وقلب في كتاب (الأعمال) لهزيود.

وقلب في (الألياذة والأوديسة) لهوميروس.

وقلب في (التاريخ) لهيرودتس.

واقرأ كتاب (الجمهورية) لأفلاطون كله من أوله إلى آخره فإنه أول كتاب أسس للناس نحو القانون العادل للإنسان الفاضل في المدينة السعيدة: ثوري انقلابي تجديدي خطير في السياسية وفي التربية وفي الاقتصاد وفي التنظيم الاجتماعي عامة وفي الأخلاق وفي التأسيس لمناهج الشك المنهجي ونظرية المعرفة والمداخل إلى قواعد النقد: لا أرقى من هذا الكتاب في التأسيس الفلسفي الأخلاقي التربوي السياسي الاجتماعي قبل أرسطوطاليس.

وأعد قراءة هذا الكتاب وأرجع إليه مرة أخرى وراجعه كلما اقتضى الأمر.

واقرأ كتاب (الأخلاق النيقوماخية) لأرسطوطاليس فهذا أول كتاب أسس للناس في نظام السلوك وعلم الأخلاق.

واقرأ كتاب (الطبيعة) وكتاب (ما بعد الطبيعة) وكتاب (الخطابة) وكتاب (فن الشعر) - وكلها من تأليف أرسطوطاليس - يستقم لك أمر بداية تاريخ العلم الطبيعي والميتافيزيقا والفن عامة والأدب في الإنشاء وفي النقد واقرأ بعد ذلك المعلقات واحفظ ما تيسر لك من القرآن.

واقرأ (كليلة ودمنة) و(ألف ليلة وليلة) واستأنس في التقليب في كتاب (البخلاء) وفي كتاب (الحيوان) وفي كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ... وقلب تقليب استئناس في رسائله الأخرى وفي (مقامات الحريري) وفي (مقامات الهمداني) وفي كتاب (الأغاني) واحفظ شيئاً مما يعجبك وتستسيغ حفظه من دواوين جرير والفرزدق والأخطل وبشار وأبي نؤاس والبحتري وابن الرومي وأبي تمام والمتنبي والمعري.

وقلب في كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) وكتاب (إحصاء علوم الدين) وكلاهما للفارابي.

وقلب في كتاب (مقاصد الفلاسفة) وكتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) وكتاب (تهافت الفلاسفة) وكتاب (المنقذ من الظلال) وكلها للغزالي.

وقلب في كتاب (حكمة الإشراق) وفي كتاب (هياكل النور) للسهروردي.

واقرأ كتاب (حي بن يقظان) لابن طفيل قراءة استيعاب ونقد وتمحيص.

وقلب في كتاب (تهافت التهافت) لابن رشد.

وأقرأ مقدمة ابن خلدون وقلب في تاريخه وفي كتاب الطبري.

وأدخل بعد ذلك العصور الحديثة من بوابة طلائع الفلسفة الحديثة وطلائع العلم الحديث.

وقلب تقليباً سريعاً بلا قراءة في كتب كل من (ديكارت وسبينوزا وليبنز وجون لوك وديفيد هيوم وجورج باركلي وهربرت سبنسر وإيمانويل كانت وفريدريك هيجل).

وقلب كذلك مسرعاً بلا قراءة في كتاب (أصل الأنواع) لداروين.

وقلب تقليباً سريعاً بلا قراءة في كتاب (دون كيشوت) لسرفانتس وفي (فاوست) لجوته وفي كتاب (الكوميديا الإلهية) لدانتي وقلب بعد ذلك تقليباً سريعاً في مؤلفات كل من (نيتشه وشوبنهاور وفولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو).

واقرأ قراءة المتمتع المستأنس كتاباً واحداً من مؤلفات كل من (تولستوي وجيكوف وغوركي ودستوفسكي وزفايج وجورج بيرناردشو وشيكسبير وهيرمان هيسه وجان بول سارتر وهيمنجواي وإليوت.

واقرأ بعد ذلك - لا خوف عليك - ما شئت وأكتب ما تشاء فإنك تعلمت السباحة على الصدر وعلى الظهر وعلى الرأس وعلى الجنبين... وقلب تقليباً سريعاً في كتاب يبسط لك شيئاً من مسائل تمدد الفضاء... وكن بعد ذلك ما شئت - لا خوف عليك - وكما تشاء.

وإلا فاقرأ (تجديد الفلسفة) لجون ديوي و(حكمة الغرب) لبيرتراند رسل و(الوجود والعدم) لسارتر و(ضياع في سوهو) لكولن ولسن وشيئاً عن الشخصيات الكافكاوية وأشياء من غربة العزلة في الانغلاق بلا تواصل لجيمس جويس.

واقرأ (رأس المال) لكارل ماركس وكتاب (رخاء الشعوب) لآدم سميث فإنها مسألة اقتياد الثقافة من الرأس - لا من الأذناب والذيول - داخل تاريخ التأسيس الثقافي الرصين.

وإلا فابدأ بنفسك ولا تسافر في أقطار النفس نفسك التي هي - إذا شاء الحظ وصدقت النية - أحسن المعلمين.

حين لا يختلفون إلا باللغة

يجمع أرسطو والأرسطيون كلهم وكل الشراح على أن الموجودات لا توجد إلا إما بالقوة وإما بالفعل... ويتداول هؤلاء في الشرح والتوضيح مثل المرمر والنحت والنحات والتمثال على هذا النحو.

إن المرمر مرمر بالفعل وتمثال بالقوة في الوقت نفسه.

لكن المرمر لا يصير تمثالاً ما لم يقبل المرمر من النحات صورة التمثال الذي نريده غاية في للنحت... ولا يصح قولك إن التمثال كامن في المرمر مثل كمون اللؤلؤ في المحار فتكسر المرمر يستخرج منه التمثال مثلما نستخرج اللؤلؤ بعد كسر المحار.

ولا يصح قولك إن التمثال خفي في المرمر خفاء الأميبا في الماء فتراه مثلما ترى الأميبا بالمايكرسكوب.

ولا يصح قولك إن التمثال خفي في المرمر مثل خفاء الهيدروجين والأوكسجين في الماء بالممازجة والتركيب فتستخرجه من المرمر مثلما تستخرج الهيدروجين والأوكسجين من الماء بالتحليل.

ولا يصح قولك إن التمثال خفي في المرمر لأنه صغير أو لأنه بعيد.

إن لا خفي لأنه بعيد فتظهره بالتقريب ولا خفي لأنه صغير فتظهره بالتكبير.

ولا يصح قولك إن التمثال موجود بالقوة في المرمر مثل وجود

الرطب بالقوة في نواة التمر، أو مثل وجود الكائن الحي التام الخلقة بالقوة في الجنين.

ذلك أن التمثال لا يتطور من المرمر تطوراً بايولوجياً مثل تطور الكائن الحي بالنمو والانتشار من الواحد البسيط المتجانس إلى الكثير المركب المعقد المختلف الكثير الوظائف والأعضاء.

ولا يصح قولك إن التمثال موجود بالقوة في المرمر مثل وجود المدينة في القرية.

ذلك لأن التمثال لا يتطور من المرمر تطوراً سوسيولوجياً مثل تطور الكائن الاجتماعي والبنية الحضارية المدنية بالنمو والانتشار من واحد بسيط متجانس إلى كثير مختلف مركب معقد كثير الوظائف والحاجات والتخصص.

ولا يصح قولك إن التمثال موجود في المرمر بالقوة مثل وجود الكذب في الصادق والصدق في الكاذب... والفجور في التقي الورع، والورع والتقي في الفاجرين.

ذلك لأن التمثال في المرمر لا يوجد فيه بالقوة على سبيل وجود الخليقة خفية فتظهر... ذلك لأن التمثال لا يوجد في المرمر وجود ملازمة مثل وجود الغرائز والدوافع والعادات والغايات في الكائن البايولوجي عامة وفي الكائن السايكولوجي الأخلاقي على وجه التخصيص.

ولا يصح قولك إن التمثال موجود بالقوة في المرمر على سبيل الوجود المنطقي الهيجلي القائم على النقض والإبرام.

ذلك لأنك لا تنقض المرمر فتخرج بهذا النقض التمثال من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل... هذا من جهة أما من الجهة الأخرى فالتمثال لا يؤلف نقيضاً ناقضاً للمرمر... ولا المرمر نقيض التمثال... وهذا من البديهيات.

ولا إن التمثال موجود بالقوة في المرمر على سبيل وجود القانون في الطبيعة فيكون وجوده مثل وجود قانون الجذب العام في الطبيعة ويكون هنري مور مثل أرخميدس ويكون رودان مثل نيوتن ويكون النحت اكتشافاً.

ذلك لأن القانون والسلوك في الظاهرة الطبيعية أمر واحد ولا إنهما أمران سلوك وقانون موجود بالقوة في السلوك فيخرجه العلماء من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل.

ولا التمثال موجود بالقوة في المرمر على سبيل وجود العلاقات الرياضية الكمية بين الأشياء.

ذلك لأن العلاقات الرياضية الكمية بين الأشياء تؤلف جزءاً لا يتجزأ من قانون الظاهرة وسلوكها الذي لا يعني إلا القانون والعلاقات الرياضية الكمية التي لا يصبح عليها من القول إلا المعرفة بعد الجهل.

ولا يصح قولك إنك تخرج التمثال من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل من المرمر بالمعرفة.

ذلك لأن الإخراج من القوة إلى الفعل غير المعرفة بعد الجهل... وهذه بديهية... أم إن إخراج التمثال من المرمر يشبه معرفة قوانين الضغط فيكون مايكل أنجيلو مثل بويل، ويكون بويل مثل مايكل أنجيلو وتكون قوانين الضغط موجودة بالقوة قبل بويل وموجودة بالفعل به وبعده ويكون النحت اهتداء إلى معرفة بعد جهل مثل اهتداء اينشتاين إلى النسبي.

لكن التمثال موجود - حتماً بالقوة في المرمر... فما معنى هذا الكلام؟ ما معناه؟ ما معناه والتمثال في المرمر لا محجوب فيسفر، ولا خفي فيظهر، ولا مجهول فيعرف، ولا بعيد فيقرب، ولا قريب فيبعد، ولا صغير فيكبر، ولا كبير فيصغر، ولا غامض فيوضح.

لكن التمثال موجود بالقوة في المرمر لا مناص من هذا الافتراض على رأي أرسطو والأرسطيين والشراح... ولا سبيل إلى تفسير أرسطو

والاستدراك عليه وعلى الأرسطيين والشراح إلا بأفلاطون وبالمعتزلة وبالفارابي وبالذي استخلَصناه لأنفسنا بعرض هؤلاء على أرسطو وبعرض أرسطو عليهم فريقاً بعد فريق.

إن النحات لا يكون في تسمية أفلاطون إلا الصانع الذي يصنع التمثال من المادة الأولى اللا متعينة التي يعينها النحات تمثالاً على نمط المثال الذي هو الفكر يصوغ الصانع المصنوع على غرارها نمطاً يحتذى وغاية مقصودة.

واعرض أرسطو على أفلاطون تجد أن النحات علة فاعلة عند أرسطو وصانع عند أفلاطون، وتجد أن المرمر علة مادية عند أرسطو ومادة أولى غير معينة عند أفلاطون، وتجد أن صورة التمثال علة صورية عند أرسطو وفكرة عند أفلاطون.

وتجد بعد هذا أن المعلم الأول لم يأت بجديد بعد أفلاطون في المسألة غير تبديل أسماء المسميات.

ولا تمثال في رأي أفلاطون لا يرقى إلى فكرة النحات المشاركة في المثال، ذلك لأن فكرة النحات لا ترقى إلى مرتبة كمال المثال مهما بلغ النحات من قدرة على الارتقاء نحو المثال ومهما طاوعته المادة الأولى في قبول فكرته، ويظل التمثال ناقصاً ولأفلاطون حجة بارعة لتقوية هذا الرأي: إنه يقول لك إنك لا ترى الجميل مهما بلغ من الجمال إلا أهاجت فيك الرؤية إحساسين: أحدهما التطلع إلى ما هو أجمل والثاني: الخوف عليه من الزوال.

فما الجميل الذي لا تتطلع إلى ما هو أجمل منه ولا تخاف عليه من الزوال: إنه المثال في رأي أفلاطون.

والتمثال لا يصير بعد أن ينجز النحات صنعه إلا واقعاً... ويظل الواقع مهما بلغ من درجة الكمال ناقصاً مرتين: مرة دون حد فكرة

النحات، ومرة لأن فكرة النحات تظل دون حد المثال.

أما إذا كان النحات لا يحاكي إلا واقعاً ملموساً فإن التمثال سيظل ناقصاً مرتين: مرة دون حد الواقع... ومرة لأن الواقع يظل دون حد المثال.

واصرف هذا إلى الشعر ينصرف، لكنه لا ينصرف لا إلى أحكام المنطق ولا إلى أحكام الرياضيات... وأفلاطون فيلسوف رياضي منطقي لا يرى في العبارة الفنية ذلك الإحكام الذي يراه في العبارة الرياضية وفي العبارة المنطقية.

ولا ينبغي لنا أن نتوخى حمل موقف أفلاطون من العبارة الفنية على الإنشاء ما دام أفلاطون لم يحمل هذا الموقف إلا على الخبر بإخبار صادق لا راد له ولا رد عليه... ذلك لأن الخروج من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل لا يكون إلا ناقصاً محدوداً بقدرة فعل الفاعل، ومحدوداً بقدرة فعل المنفعل ومحدوداً بالغاية من الصنع ومحدوداً بصورة وتصور النحات أو الرسام أو الشاعر.

وتظل كراسي النجارين وقصائد الشعراء وتماثيل النحاتين أشياء محكومة بالنقص لا مناص من هذا الحكم ما دام - والأمر دائم - صنع هؤلاء محكوماً بقدرة فعل الفاعل وبقدرة انفعال المنفعل وبالغاية من الصنع وبالصورة التي يكون على نمطها - لا على غيره - إخراج الموجود بالقوة من حدود الإمكان إلى حدود الوجود بالفعل.

هذا وقدرة الفاعل محكومة بمادة الموضوع مثلما مادة الموضوع محكومة بقدرة الفاعل... ومن البديهيات أنك لو استنفرت كل بناة الأهرام والزقورات وناطحات السحاب إلى إنشاء صرح من الرمل وحده لأعجزت المعمار ولظلمت نفسك وفن العمارة والعمران كله ولما صار لك الصرح الذي تريد.

ذلك لأن مادة الموضوع لا ترقى بطبعها إلى قبول صورة الصرح مهما

بلغ الصانع الفاعل من الكفاءة ومهما شرفت الغاية واتضحت المقاصد... ومثل هذا في الظلم إذا استنفرت كل الذين لم يروا البحر إلا في الأطلس الجغرافي إلى إنشاء فني سندبادي كروزي ماجلاني فيه مد وجزر ودوار بحر وريح وإعصار وأشرعة ومجاذيف وصواري وجوع وعطش ومكابدة الأمواج على لوحة من السفينة بعد أن ضعضعتها الريح وحطمها الإعصار، ذلك لأن الصانع الفاعل لا يرقى بطبعه إلى مادة الموضوع.

وأول بداية العدل في كل الأمور أن تهيئ الحد الأدنى من التوافق والانسجام بين علل الإخراج من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، العلل التي هي النحات والمرمر والغاية من النحت وصورة التمثال.

واقلب المسألة تجد أن أول بداية الإخراج من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل لا يكون إلا بتهيئة الظرف العادل.

لكن التمثال موجود بالقوة في المرمر مادة، وفي النحات صورة يقبلها المرمر من النحات بتوافق مع الغاية من النحت.

والغاية والصورة وفعل النحات اعتبارات سوسكولوجية واعتبارات سوسيولوجيكا واعتبارات تربوية أخلاقية اقتصادية واعتبارات طقسية مناخية بايولوجية فسلجية... وإنها بكل هذه الاعتبارات وبآلاف غيرها تظل محكومة بالنقص ولا تخرج من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل إلا جميلاً نخاف عليه من الزوال ونتطلع إلى ما هو أجمل منه.

ذلك لأن التمثال لا يكون في المرمر قبل خروجه من القوة إلى الفعل إلا معدوماً بناء على رأي بعض المعتزلة... لكن هذا المعدوم ليس اللا شيء... بل هو عين وذات وشيء يتصف بكل صفات الشيئية ولا ينقصه إلا الوجود ليصبح موجوداً.

واعرض الرأي المعتزلي على أرسطو وعلى أفلاطون تجد أن المعدوم الذي هو عين وذات شيء لا ينقصه إلا الوجود ليصبح موجوداً ليس إلا

الصورة والعلة الصورية في لغة أرسطو التي هي الفكرة في لغة أفلاطون.

واعرض المعتزلة وأرسطو وأفلاطون على رأي الفارابي تجد أن كل ما كان بعد أن لم يكن فإنه من الممكن الذي لا يصير واجب الوجود إلا سبباً.

فالتمثال حينئذ موجود بالقوة في لغة أرسطو ومعدوم يتصف بكل صفات الشيء في لغة المعتزلة وممكن الوجود بذاته واجب الوجود بغيره في لغة الفارابي.

عظماء يتفقون ولا يختلفون إلا باللغة... ويصدرون كلهم عن أفلاطون الذي لم يصدر إلا عن خلاصة مجمل رأي ذرية آدم كلهم حاضرين وماضين وآتين.

وإلا فما السبيل إلى جميل لا تتطلع إلى ما هو أجمل منه ولا تخاف عليه من الزوال؟ ما السبيل؟

مدني صالح

فيلسوف عراقي.

هذا الكتاب

يدعو مدني صالح في كتابه هذا إلى : كيف نقرأ الفلسفة وكيف نفهمها وكيف نُعلمها لطلاب الفلسفة، وكيف نبدأ معهم الدرس الفلسفي، ففي هذا الكتاب يتضح لنا جلياً مدى قدرة المؤلف على فهم واستيعاب الفلسفة التي سعى إلى تبسيطها وجمعها وتلخيصها، هذه الدعوة التي لم يكف عنها مدني صالح حتى مماته، وفيها كان مراهناً على إمكانية تداول الفلسفة بلغة واضحة دقيقة بسيطة ممتعة لا لبس فيها ولا غموض، مثلما ظل معتقداً بأن سوء الفهم لا يقف وراءه إلا من حسب نفسه على الفلسفة وكتب فيها مدعياً فهمه لها، فالذين لا نعرف من أين جاءوا وتسربوا إلى الفلسفة ورمت بهم الأقدار إليها هم الذين أساءوا قراءتها وأساءوا فهمها وأساءوا تدريسها والكتابة عنها والحوار فيها، فظل مدني صالح متمنياً للفلسفة ولمن يتخصص فيها البساطة والوضوح والدقة، فستجد في هذا الكتاب وبشكل واضح دعواه المستمرة إلى أن على الفلسفة أن لا تعاند العلم وأن تقبل منه كل ما يأتي به، وأن لا تتدخل فيما لا يعنيها، وأن تعاند الخرافة والجهل وأن تحارب التعصب والجمود والانغلاق وأن لا تقع في براثن الغيب، فالغيب ليس من أمر الفلسفة وإلا إذا ما استمرت الفلسفة مدافعة عن قضايا قد أسقطها العلم، فعندها لم يزدد طالبها إلى سخرية منها وإلا كيف تدافع الفلسفة عن نظرية الفيض مثلاً أو عن الطبيعة عند أفلاطون أو العناصر الأربعة عند أرسطو أو عن القول بوجود عالمين، وكل ذلك قد أسقطه العلم منذ كوبرنيكوس وغاليلو وكبلر، فكل هذا لا يمكن أن نفهمه إلا على أنه مرحلة من مراحل التفكير البشري ونمط منه ليس إلا، كما ستجدون في هذا الكتاب موقفاً من الغطرسة الأوربية وإحساس الأوربي بالتفوق والتفرد في مركز القيادة الحضارية، الأمر الذي لم يقبل به مدني صالح الذي رفض احتكار الفكر والفلسفة في حضارة دون أخرى"؟.

ISBN 978-9931-369-84-4



ابن النديم للنشر والتوزيع

الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3 محل رقم 1 المحمدية
تلفاكس: 21341359788+
خلوي: 213661207603+
email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية - ناشرون

هاتف: 204180 (96171)
ص.ب: 6058 – 113 الحمراء
بيروت – لبنان
email: rw.culture@yahoo.com